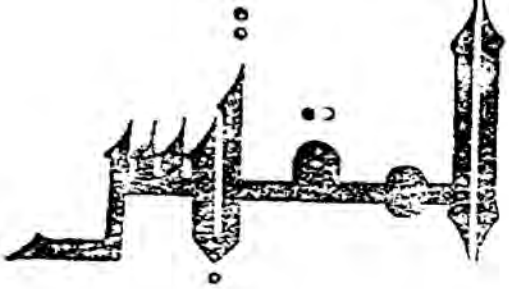

الجزء الرابع من المجلد الثالث

ربيع الثانى سنة ١٣٢٦ موافق مايو (ايار) سنة ١٩٠٨

رسالة ابن المقفع في الصحابة

أما بعد أصلح الله أمير المؤمنين وأتم عليه النعمة وألبسه المعافاة والرحمة فإن أمير المؤمنين حفظه الله يجمع مع علمه المسألة والاستماع كما كان ولاة الشر يجمعون مع جهلهم العجب والاستغناء ويستوثق لنفسه بالحجة ويتخذها على رعيته فيما يلطف له في الفحص عن أمورهم كما كان أولئك يكتفون بالدعة ويرضون بدحوض الحجة وانقطاع العذر في الامتناع أن يجترئ عليهم أحد برأي أو خبر مع تسنيط الديان. وقد عصم الله أمير المؤمنين حين أهلك عدوه وشفى غليله ومكن له في الأرض وآتاه ملكه وخزائنها من أن يشغل نفسه بالتتبع والتفتيش والتأمل والإخلاد وأن يرضا ممن آوى بالمتاع به وقضاء حاجة النفسي منه وأكرم الله أمير المؤمنين باستهانة ذلك واستصغاره إياه وذلك من أبين علامات السعادة وأنجح الأعوان على الخير وقد قص الله عز وجل علينا من نبأ يوسف بن يعقوب أنه لما تمت نعمة الله عليه وآتاه الملك وعلمه من تأويل الأحاديث وجمع له شمله وأقر عينه بأبويه وأخوته أثنى على الله عز وجل بنعمته ثم سلا عما كان فيه وعرف أن الموت وما بعده هو أولى فقال: توفني مسلماً وألحقني بالصالحين.

وفي الذي قد عرفنا من طريقة أمير المؤمنين ما يشجع ذا الرأي على تناوله بالخبرة فيما ظن أنه لم يسبقه إياه غيره وبالتذكير بما قد انتهى إليه ولا يزيد صاحب الرأي على أن يكون مخبراً ومذكراً. وكلٌّ عند أمير المؤمنين مقبول إن شاء الله. مع أن مما يزيد ذوي

الألباب نشاطاً إلى إعمال ذوي الرأي فيما يصلح الله به الأمة من يومها أو غابر دهرها الذي أصبحوا قد طمعوا فيه ولعل ذلك أن يكون على يدي أمير المؤمنين فإن مع الطمع الجد ومع اليأس القنوط وقلما ضعف الرجاء إلا ذهب الرخاء. وطلب المويس عجز وطلب الطامع حزم. ولم ندرك الناس نحن وآباؤنا إلا وهم يرون فيها خللاً لا يقطع الرأي ويمسك بالأفواه من حال وال لم يهمه الإصلاح أو أهمه ذلك ولم يثق فيه بفضل رأي أو كان ذا رأي ليس مع رأيه صون بصرامة أو حزم أو كان ذلك استئثاراً منه على الناس بنشب أو قلة تقدم لما يجمع أو يقسم لو حال أعوان ينيل بهم الولاة ليسوا على الخير بأعوان وليس له إلى اقتلاعهم سبيل لمكانهم من الأمر ومخافة الدول والفساد إن هو هاجهم أو انتقص ما في أيديهم أو حال رعية متزرة ليس لها من أمرها النصف في نفسها فإن أُخذت بالشدة حميت وإن أُخذت باللين طغت. وكل هذه الخلائق قد طهر الله منها أمير المؤمنين فآتاه الله

ما آتاه في نيته ومقدرته وعزمه ثم لم يزل يرى ذلك من الناس حتى عرفه منه جهالهم فضلاً عن علمائهم. وصنع الله لأمير المؤمنين في رأيه وأتباعه مرضاته وأذل الله لأمير المؤمنين رعيته بما جمع له من اللين والعفو فإن لان لأحد منهم ففي الأثخان له شهيد على أن ذلك ليس بضعف ولا مصانعة وإن اشتد على أحد منهم ففي العفو شهيد على أن ذلك ليس بعنف ولا خرق مع أمور سوى ذلك يكفُّ عن ذكرها كراهة أن يكون كأنا نصبنا المدح. فما أخلق هذه الأشياء أن تكون عتاداً لكل جسيم من الخير في الدنيا والآخرة واليوم والغد والخاصة والعامة. وما أرجانا لأن يكون أمير المؤمنين بما أصلح الله الأمة من بعده أشد اهتماماً من بعض الولاة بما لا يصلح رعيته في سلطانه

وما أشد ما قد استبان لنا أمير المؤمنين أطول بأمر الأمة عناية ولها نظراً وتقديراً من الرجل منا بخاصة أهله ففي دون هذا ما يثبت الأمل وينشط العمل ولا قوة إلا بالله ولله الحمد وعلى الله التمام.

فمن الأمور التي يذكر بها أمير المؤمنين أمتع الله به أمر هذا الجند من أهل خراسان فإنهم جند لم يدرك مثلهم في الإسلام وفيهم منعة بما يتم فضلهم إن شاء الله. أما هم فأهل بصر بالطاعة وفضل عند الناس وعفاف نفوس وفروج وكف عن الفساد وذل للولاة فهذه حال لا نعلمها توجد عند أحد غيرهم. وأما ما يحتاجون فيه إلى المنعة من ذلك تقويم أيديهم ورأيهم وكلامهم فإن في ذلك اليوم اختلاطاً من رأسي مفرط غال وتابع متحير شال. ومن كان إنما يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة في الرأي والقول والسيرة فهو كراكب الأسد الذي يوجل من رآه والراكب أشد وجلاً.

فلو أن أمير المؤمنين كتب لهم أماناً معروفاً بليغاً وجيزاً محيطاً بكل شيء يجب أن يقول فيه ويكفوا عنه بالغاً في الحجة قاصراً عن الغلو يحفظه رؤساؤهم حتى يقود به دهماءهم ويتعهد به منهم من لا يؤبه له من عرض الناس لكان ذلك إن شاء الله لرأيهم صلاحاً وعلى من سواهم حجة وعند الله عذراً. فإن كثيراً من المتكلمين من قواد أمير المؤمنين اليوم إنما عامة كلامهم فيما يؤمر الأمر ويرغم الرغم أن أمير المؤمنين لو أمر الجبال أن تسير سارت ولو أمر أن تستدبر القبلة بالصلاة فعل ذلك وهذا كلام قلما (يرتضيه) من كان مخالفاً وقلما يرد في سمع السامع إلا أحدث في قلبه ريبة وشكاً.

والذي يقول أهل القصد من المسلمين هو أقوى للأمر وأعز للسلطان وأقمع للمخالف وأرضا للموافق وأثبت للعذر عند الله عز وجل.

فإنا قد سمعنا فريقاً من الناس يقولون لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. بنوا قولهم هذا بناءً معوجاً فقالوا إن أمرنا الإمام بمعصية الله فهو أهل أن يعصى وإن أمرنا الإمام بطاعة الله فهو أهل أن يطاع. فإذا كان الإمام يعصى في المعصية وكان غير الإمام يطاع في الطاعة فالإمام ومن سواه على حق الطاعة سواء. وهذا قول معلوم يجده السلطان ذريعة إلى الطاعة والذي فيه أمنيته لئلا يكون للناس نظائر ولا يقوم بأمرهم إمام ولا يكون على عدوهم منهم ثقل.

سمعنا آخرين يقولون بل نطيع الأئمة في كل أمورنا ولا نفتش عن طاعة الله ولا معصيته ولا يكون أحد منا عليه حسيباً هم ولاة الأمر وأهل العلم ونحن الأتباع وعلينا الطاعة والتسليم. وليس هذا القول بأقل ضرراً من توهين السلطان وتهجين الطاعة من القول بالذي قبله لأنه ينتهي إلى التطيع المتفاحش من الأمر في استحلال معصية الله جهاراً صراحاً. وقال أهل الفضل والصواب: قد أصاب الذين قالوا: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ولم يصيبوا في تعطيلهم طاعة الأئمة وتسخيفهم إياها وأصاب الذين أقروا بطاعة الأئمة لما حققوا منها ولم يصيبوا ما أبهموا من ذلك في الأمور كلها فأما إقرارنا فإنه لا يطاع الإمام في معصية الله فإنما ذلك في عزائم الفرائض والحدود التي لم يجعل الله لأحد عليها سلطاناً. ولو أن الإمام نهى عن الصلاة والصيام والحج أو منع الحدود وأباح ما حرم الله لم يكن له في ذلك أمراً.

فأما إثباتنا للإمام الطاعة فيما لا يطاع فيه غيره فإن ذلك في الرأي والتدبير والأمر الذي جعل الله أزمته وعراه بأيدي الأئمة ليس لأحد فيه أمر ولا طاعة من الغزو والقفول والجمع والقسم والاستعمال والترك والحكم بالرأي فيما لم يكن فيه أثر

وإمضاء الحدود والأحكام على الكتاب والسنة ومحاربة العدو ومخادعته والأخذ للمسلمين والإعطاء عليهم. وهذه الأمور وأشباهها من طاعة الله عز وجل الواجبة وليس لأحد من الناس فيها حق إلا الإمام ومن عصى الإمام أو خذله فقد أوتغ نفسه. وليس يفترق هذان الأمران إلا ببرهان من الله عز وجل عظيم. وذلك أن الله جعل قوام الناس وصلاح معاشهم ومعادهم في خلتين الدين والعقل. ولم تكن عقولهم وإن كانت نعمة الله عز وجل عظمت عليهم فيها بالغة معرفة الهدى ولا مبلغة أهلها رضوان الله إلا ما أكمل لهم من النعمة بالدين الذي شرع لهم وشرح به صدر من أراد هداه منهم ثم لو أن الدين جاء من الله لم يغادر حرفاً من الأحكام والرأي والأمر وجميع ما هو وارد على الناس وجار فيهم مذ بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم إلى يوم يلقونه إلا جاء فيه بعزيمة لكانوا قد كلفوا غير وسعهم فضيق عليهم في دينهم وآتاهم ما لم تسمع أسماعهم لاستماعه ولا قلوبهم لفهمه ولحارت عقولهم وألبابهم التي امتن الله بها عليهم ولكانت لغواً لا يحتاجون إليها في شيء ولا يعلمونها إلا في أمر قد أتاهم به تنزيل ولكن الله من عليهم بدينهم الذي لم يكن يسعه رأيهم كما قال عباد الله المتقون: ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

ثم جعل ما سوى ذلك من الأمر والتدبير إلى الرأي وجعل الرأي إلى ولاة الأمر ليس للناس في ذلك الأمر شيء إلا الإشارة عند المشورة والإجابة عند الدعوة والنصيحة بظهر الغيب. ولا يستحق الوالي هذه الطاعة إلا بإقامة العزائم والسنن مما هو معني في معنى ذلك. ثم ليس من وجوه القول وحده يلتمس فيه ملتمس إثبات فضل أهل بيت أمير المؤمنين على أهل بين (من سواه) وغير ذلك مما يحتاج الناس إلى ذكره ألا وهو

موجود فيه من الكلام الفاضل المعروف مما هو أبلغ مما يغلو به الغالون فإن الحجة ثابتة والأمر واضح بحمد الله ونعمته.

ومما ينظر فيه لصلاح هذا الجند ألا يولي أحدا منهم شيئاً من الخراج فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة. ولم يزل الناس يتحامون ذلك منهم وينحونه عنهم لأنهم أهل ذاك ودعوى بلاء وإذا خلا بالدراهم والدنانير اجترأ عليهما وإذا وقع في الخيانة صار كل أمر مدخولاً بنصيحته وطاعته فإن حيل بينه وبين رفعته أمرضته الحمية مع أن ولاية الخراج داعية إلى ذلة وعقوبة وهوان. وإنما منزلة المقاتل منزلة الكرامة واللطف. ومما ينظر فيه من أمرهم أن منهم من المجهولين من هو أفضل من بعض قادتهم فلو التمسوا وصنعوا كانوا عدة وقوة وكان ذلك صلاحاً لمن فوقهم من القادة ومن دونهم من العامة.

ومن ذلك تعهد أدبهم في تعليم الكتاب والتفقه في السنة والأمانة والعصمة والمباينة لأهل الهوى وأن يظهر فيهم من القصد والتواضع واجتناب زي المترفين وشكلهم مثل الذي يأخذ به أمير المؤمنين في أمر نفسه. ولا يزال يطلع من أمير المؤمنين ويخرج منه القول ما يعرف مقته للإتراف والإسراف وأهلهما ومحبته القصد والتواضع ومن أخذ بهما حتى يعلموا أن معروف أمير المؤمنين محظور عمن يكثره بخلاً أن ينفقه سرفاً في العطر واللباس والمغالات بالنساء والمراتب فإن أمير المؤمنين يؤثر بالمعروف من وجهه المعروف والمؤاساة. ومن ذلك أمر أرزاقهم من يوقت لهم أمير المؤمنين فيها وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ما بدا له وأن يعلم عامتهم العذر الذي في ذلك من إقامة ديوانهم وتحمل أسمائهم ويعلموا الوقت الذي يأخذون فيه فينقطع الاستبطاء

والشكوى. فإن الكلمة الواحدة تخرج من أحدهم في ذلك أهل أن تستعظم فإن باب ذلك جدير أن يحسم مع أن أمير المؤمنين قد علم كثرة أرزاقهم وكثرة المال الذي يخرج لهم وأن هذا الخراج إن يكن رائجاً لغلاء السعر فإنه لا بد من الكساد والكسروان وأن لكل شيء درة وغزارة وإنما درور خراج العراق بارتفاع الأسعار وإنما يحتاج الجند اليوم إلى ما يحتاجون إليه من كثرة الرزق لغلاء السعر فمن حسن التقدير إن شاء الله أن لا يدخل على الأرض ضرر ولا بيت المال نقصان من قبل الرجحان إلا دخل ذلك عليهم في أرزاقهم مع أنه ليس عليهم في ذلك نقصان لأنهم يشترون بالقليل مثل ما كانوا يشترون بالكثير. فأقول لو أن أمير المؤمنين ما خلا شيئاً من الرزق فيجعل بعضه طعاماً ويجعل بعضه علفاً فأعطوه بأعيانهم فإن قومت لهم قيمة فخرج ما خرج على حسابه قيمة الطعام والعلف لم يكن في أرزاقهم لذلك نقصان عاجل يستنكرونه وكان ذلك. . نرالهم لحمل العدو وإنصاف بيت المال من أنفسهم فيما يستبطئون مع أنه إن زاد السعر أخذوا بحصتهم من فضل ذلك. ومن جماع الأمر وقوامه بإذن الله أن لا يخفى على أمير المؤمنين شيء من أخبارهم وحالاتهم وباطن أمرهم بخراسان والعسكر والأطراف وأن يحتقر في ذلك النفقة ولا يستعين فيه إلا بالثقات النصاح فإن ترك ذلك وأشباهه أحزم بتاركه من الاستعانة فيه بغير الثقة فتصير جُنة للجهالة والكذب.

ومما يذكر به أمير المؤمنين أمتع الله به أمر هذين المصرين فإنهم بعد أهل خراسان أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعته ومعينيه مع اختلاطهم بأهل خراسان وأنهم منهم وهامتهم وإنما ينظر أمير المؤمنين منهم. . صدق ولرابطتهم أو ما أراد من أمورهم معرفته

استثقال أهل خراسان ذلك لهم من أمر مع الذي في ذلك من جمال الأمر واختلاط الناس بالناس العرب

بالعجم وأهل خراسان بالمصريين.

إن في أهل العراق يا أمير المؤمنين من الفقه والعفاف والألباب والألسنة شيئاً لا يكاد يشك أنه ليس في جميع من سواهم من أهل القبلة مثله ولا مثل نصفه فلو أراد أمير المؤمنين أن يكتفي بهم في جميع ما يلتمس له أهل الطبقة من الناس رجونا أن يكون ذلك فيهم موجوداً. وقد أزرى بأهل العراق في تلك الطبقة أن ولاة العراق فيما مضى كانوا أشرا الولاة وأن أعوانهم من أهل أمصارهم (كذلك) فحمل جميع أهل العراق على ما ظهر من أولئك الفسول وتعلق بذلك أعداؤهم من أهل الشام فنعوه عليهم ثم كانت هذه الدولة فلم يتعلق من دونكم من الوزراء والعمال إلا بالأقرب فالأقرب مما دنا منهم أو وجدوه بسبيل شيء من الأمر فوقع رجال مواقع شائنة لجميع أهل العراق حيث ما وقعوا في صحابة خليفة أو ولاية عمل أو موضع أمانة أو موطن جهاد وكان من رأي أهل الفضل أن يقصدوا حتى يلتمسوا فأبطأ ذلك بهم أن يُعرفوا وينتفع بهم وإن كان صاحب السلطان لمن لم يعرف الناس قبل أن ينبههم ثم لم يزل يسأل عنهم من يعرفهم ولم يستثبت في استقصائهم فزالت الأمور عن مراكزها ونزلت الرجال عن منازلها لأن الناس لا يلقونه إلا متصنعين بأحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام غير أن أهل النقص هم أشد تصنعاً وأحلى السنة وأرفق تلطفاً للوزراء أو تمحلاً لأن يثني عليهم من وراء وراء. فإذا آثر الوالي أن يستخلص رجلاً واحداً ممن ليس لذلك أهلاً دعا إلى نفسه جميع ذلك الشرح وطمعوا فيه واجترأوا عليه وتوردوه وزحموا على

ما عنده وإذا رأى ذلك أهل الفضل كفوا عنه وباعدوا منه وكرهوا أن يروا في غير موضعهم أو يزاحموا غير نظرائهم.

ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين وغيرهما من الأمصار والنواحي اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ حد اختلافها أمراً عظيماً في الدماء والفروج والأموال فيستحل الدم والفرج بالحيرة وهما يحرمان بالكوفة. ويكون مثل ذلك الاختلاف في جوف الكوفة فيستحل في ناحية منها ما يحرم في ناحية أخرى غير أنه على كثرة ألوانه نافذ على المسلمين في دمائهم وحرمهم يقضي به قضاة جائر أمرهم وحكمهم مع أنه ليس مما ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا قد خَبّ بهم العجب بما في أيد

يهم والاستخفاف ممن سواهم فأفحشهم ذلك في الأمور التي يشفع بها من سمعها من ذوي الألباب.

أما من يدعي لزوم السنة منهم فيجعل ما ليس له سنة سنة حتى يبلغ ذلك به إلى أن يسفك الدم بغير بينة ولا حجة الأمر الذي يزعم أنه سنة وإذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول هُريق فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأئمة الهدى من بعده. وإذا قيل له أي دم سفك على هذه السنة التي تزعمون قالوا: فعل ذلك عبد الملك بن مروان أو أمير من بعض أولئك الأمراء وإنما من يأخذ بالرأي فيبلغ به الاعتزام عن رأيه أن يقول في الأمر الجسيم من أمر المسلمين قولاً لا يوافقه عليه أحد من المسلمين ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وإمضائه الحكم عليه وهو مقر أنه رأي منه لا يحتج بكتاب ولا سنة. فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه القضية والسير

المختلفة فترفع إليه كتاب ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياس ثم نظر أمير المؤمنين في ذلك وأمضى في كل قضية رأيه الذي ينهضه الله ويعزم له عليه وينهى عن القضاء بخلافه وكتب بذلك كتاباً جامعاً عزماً لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكماً صواباً واحداً ورجونا أن يكون اجتماع السير قربة لإجماع الأمر برأي أمير المؤمنين وعلى لسانه ثم يكون ذلك من إمام آخر. آخر الدهر إن شاء الله.

فأما اختلاف الأحكام إما شيءٌ مأثور عن السلف غير مجمع عليه يدبره قوم على وجه ويدبره آخرون على وجه آخر فينظر فيه إلى أحق الفريقين بالتصديق وأشبه الأمرين بالعدل. وأما رأي أجراه أهله على القياس فاختلف وانتشر ما يغلط في أصل المقايسة وابتدأ أمر على غير مثاله. وإما لطول ملازمته القياس فإن من أراد أن يلزم القياس ولا يفارقه أبداً في أمر الدين والحكم وقع في الورطات ومضى على الشبهات وغمض على القبيح الذي يعرفه ويبصره فأبى أن يتركه كراهة ترك القياس. وإنما القياس دليل يستدل به على الحاسن فإذا كان ما يقود إليه حسناً معروفاً أُخذ به وإذا قاد إلى القبيح المستنكر ترك لأن المبتغى ليس غير القياس ينبغي ولكن محاسن الأمور ومعروفها وما ألحق بأهله. ولو أن شيئاً مستقيماً على الناس ومنقاداً حيث قيد لكان الصدق هو ذلك أولى أن يعتبر بالمقايس فإنه لو أرد أن يقوده الصدق لم ينقد إليه. وذلك أن رجلاً لو قال: أتأمرني أن أصدق فلا أكذب كذبة أبداً لكان جوابه أن يقول نعم ثم لو التمس منه قود ذلك فقال: أتصدق في كذا وكذا حتى يبلغ به أن يقول الصدق في

رجل هارب استدلني عليه طالب ليظلمه فيقتله لكسر عليه قياده وكان الرأي له أن يترك ذلك وينصرف إلى الجمع عليه المعروف المستحسن.

ومما يذكر به أمير المؤمنين أهل الشام فإنهم أشد الناس مؤونة وأخوفهم عداوة وبائقة. وليس يؤاخذهم أمير المؤمنين بالعداوة ولا يطمع منهم في الاستجماع على المودة فمن الرأي في أمرهم أن يختص أمير المؤمنين منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحاً أو يعرف منه نصيحة أو وفاءً فإن أولئك لا يلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم في الرأي والهوى ويدخلوا فيما حملوا عليه من أمرهم فقد رأينا أشباه أولئك من أهل العراق الذين استدخلهم أهل الشام وليس أحد من أمر أهل السلم على القصاص حرموا كما كانوا يحرمون الناس وجعل فيئهم إلى غيرهم كما كان في غيرهم إليهم ونحوا عن المنابر والمجالس والأعمال كما كانوا ينحون عن ذلك من لا يجهلون فضله في السابقة والمواضع ومنعت منهم المرافق كما كانوا يمنعون الناس أن ينالوا معهم أكلة من الطعام الذي يصنعه أمراؤهم للعامة. فإن رغب أمير المؤمنين لنفسه عن هذه السيرة وما أشبهها فلم يعارض ما عاب ولم يمثل ما سخط كان العدل أن يقتصر بهم على فيئهم فيجعل ما خرج من كور الشام فضلاً عن النفقات وما خرج من مصر فضلاً عن حقوق أهل المدينة ومكة بأن يجعل أمير المؤمنين ديوان مقاتلتهم ديوانهم أو يزيد وينقص غير أنه يأخذ أهل القوة والغناء وخفة المؤونة والعفة في الطاعة ولا يفضل أحداً منهم على أحد إلا على خاصة معلومة ويكون الديوان كالغرض المستأنف ويأمر لكل جند من أجناد أهل الشام بعدة من العيال يقترعون عليها ويسوي بينهم فيما لم يكونوا أسوة فيه فيمن مات من عيالاتهم ولا يصنع بأحد من المسلمين.

وأما ما يتخوف المتخوفون من نزواتهم فلعمري لئن أخذوا بالحق ولم يؤاخذوا به أنهم لخلقاء أن يكون لهم نزوات ونزقات ولكنا على مثل اليقين بحمد الله من أنهم لم يشركوا بذلك إلا أنفسهم وأن الدائرة لأمير المؤمنين عليهم آخر الدهر إن شاء الله. فإنه لم يخرج الملك من قوم إلا بقيت فيهم بقية يتوثبون بها ثم كان ذلك التوثب هو سبب استئصالهم وتدويخهم.

ومما يذكر به أمير المؤمنين أمر أصحابه فإن من أولى أمر الوالي منه بالتثبيت والتحيز أمر أصحابه الذين هم بهاء فنائه وزينة مجلسه وألسنة رعيته والأعوان على رأيه ومواضع كرامته والخاصة من عامته فإن أمر هذه الصحابة قد عمل فيه من كان وليه من الوزارة والكتاب قبل خلافة أمير المؤمنين عملاً قبيحاً مفرط القبح مفسداً للحسب والأدب والسياسة داعياً للأشرار طارداً للأخيار فصارت صحبة الخليط أمراً سخيفاً فطبع فيه الأوغاد وتزهد فيه من كان يرغب فيما دونه حتى إذا التقينا أيام العباس رحمه الله وكنت في ناس من صلحاء أهل البصرة ووجوههم فكنت في عصابة منهم أبوا أن يأتوه فمنهم من تغيب فلم يقدم ومنهم من هرب بعد قدومه اختياراً للمعصية على سوء الموضع لا يعتذرون في ذلك إلا بضياع الكتب والدعوة والمدخل يقولون هذه منزلة كان من هو أشرف من أبنائنا يرغبون فيما هو دونها عند من هو أصغر أمراء ولاتنا اليوم وقد كانت مكرمة وحسباً إذ الناس ينظرون ويسأل عنهم فأما اليوم ونحن نرى فلاناً وفلاناً ينفر بأسمائهم على غير قديم سلف ولا بلاء حدث فمن يرغب فيما هاهنا يا أمير المؤمنين أكرمك الله أما يصير العدل كله إلى تقوى الله عز وجل وإنزال الأمور منازلها فإن الأول قال:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وقال:

هم سودوا نصراً وكل قبيلة ... يُبين عن أحلامها من يسودها

وإن أمر هذه الصحابة قد كان فيه أعاجيب دخلت فيه مظالم. أما العجب فقد سمعنا من الناس من يقول ما رأينا أعجوبة قط أعجب من هذه الصحابة ممن لا ينتهي إلى أدب ذي نباهة ولا حسب معروف ثم هو مسخوط الرأي مشهور بالفجور من أهل مصر قد غبر علامة دهره صانعاً يعمل بيده ولا يعتد مع ذلك ببلاء ولا غناء إلا أنه مكنه من الأمر صانع فاحتوى حيث أحب فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار وقبل قرابة أمير المؤمنين وأهل بيوتات العرب ويجري عليهم من الرزق الضعف مما يجري على كثير من بني هاشم وغيره من سروات قريش ويخرج له من المعونة على نحو ذلك لم يضعه بهذا الموضع رعاية رحم ولا فقه في دين ولا بلاء في مجاهدة عدو معروفة ماضية متتابعة قديمة ولا غناء حديث ولا حاجة إليه في شيء من الأشياء ولا عدة يستعد

بها وليس بفارس ولا خطيب ولا علامة إلا أنه خدم كاتباً أو حاجباً فأخبر أن الذين لا يقوم إلا به حتى كتب كيف شاء ودخل حيث شاء.

وأما المظلمة التي دخلت في ذلك فعظيمة قد خصت قريشاً وعمت كثيراً من الناس وأدخلت على الأحساب والمروءات محنة شديدة وضياعاً كثيراً فإن في أذن الخليفة والمدخل عليه والمجلس عنده وما يجري على صحابته من الرزق والمعونة وتفضيل بعضهم على بعض في ذلك حكماً عظيماً على أن الناس في أنسابهم وأخطارهم وبلاء

أهل البلاء منهم وليس ذلك كخواص المعروف ولطيف المنازل أو الأعمال التي يختص بها المولى من أحب ولكنه باب من القضاء جسيم عام يقضي فيه للماضين من أهل السوابق والمآثر من أهل الباقين وأهل البلاء والغناء بالعدل أو بما يجال فيه عليهم فإن أحق المظالم بتعجيل الرفع والتغيير ما كان ضره غالباً وكان السلطان شائناً ثم لم يكن في رفعة مؤونة ولا شغب ولا توغير بصدور عامة ولا للقوة ولا أضرار سبب.

ولصحابة أمير المؤمنين أكرمه الله مزية وفضل وهي مكرمة سنية حرية أن تكون شرفاً لأهلها وحسباً لأعقابهم وحقيقة أن تصان وتخطر ولا يكون فيها إلا رجل بدر بخصلة من الخصال ومن رجل له عند أمير المؤمنين خاصة بقرابة أو بلاء أو رجل يكون شرفه ورأيه وعمله أهلاً لمجلس أمير المؤمنين وحديثه ومشورته أو صاحب نجدة يعرف بها ويستعد لها يجمع مع نجدته حسباً وعفافاً فيرفع من الجند إلى الصحابة ورجل فقيه مصلح يوضع بين أظهر الناس لينتفعوا بصلاحه وفقهه أو رجل شريف لا يفسد نفسه أو غيرها فإما من يتوسل بالشفاعات فإنه يكتفي أو يكتفى له بالمعروف والبر فيما لا يهجن رأياً ولا يزيل أمراً عن مرتبته ثم تكون تلك الصحابة المخلصة على منازلها ومداخلها ألا يكون للكاتب فيها أمر في رفع رزق ولا وضعه ولا للحاجب في تقديم إذن ولا تأخيره.

ومما يذكر به أكبر المؤمنين أمر فتيان أهل بيته وبني أبيه وبني علي وبني العباس فإن فيهم رجالاً لو متعوا بجسام الأمور والأعمال سدوا وجوهاً وكانوا عدة لأخرى.

ومما يذكر به أمير المؤمنين أمر الأرض والخراج فإن أجسم ذلك وأعظمه خطراً وأشده مؤونة وأقربه من الضياع ما بين سهله وجبله ليس لها تفسير على الرساتيق والقرى

فليس للعمال أمر ينتبهون إليه ولا يحاسبون عليه ويحول بينهم وبين الحكم على أهل الأرض بعدما يتأنقون لها في العمارة ويرجون لها فضل ما تعمل أيديهم. فسيرة العمال فيهم إحدى اثنتين إما رجل أخذ بالخرق والعنف من حيث وجد وتتبع الرجال والرساتيق بالمغالاة ممن وجد، وإما رجل صاحب مساحة يستخرج ممن زرع ويترك من لم يزرع فيعسر من عسر ويسلم من أخرب مع أن أصول الوظائف على الكور لم يكن لها ثبت ولا علم وليس من كورة إلا وقد غيرت وظيفتها مراراً فخفيت وظائف بعضها وبقيت وظائف بعض فنو أن أمير المؤمنين أعمل رأيه في التوظيف على الرساتيق والقرى والأرضين وظائف معلومة وتدوين الدواوين بذلك وإثبات الأصول حتى لا يؤخذ رجل إلا بوظيفة قد عرفها وضمنها ولا يجتهد في عمارة إلا كان له فضلها ونفعها لرجونا أن يكون في ذلك صلاح للرعية وعمارة للأرض وحسم لأبواب الخيانة وغشم العمال. وإذا رأي مؤونته شديدة ورجاله قليل ونفعه متأخر. وليس بعد هذا من أمر الخراج غلا رأي قد رأينا أمير المؤمنين أخذ به ولم نره من أحد قبله من تخير العمال وتفقدهم والاستعتاب لهم والاستبدال بهم.

ومما نذكر به أمير المؤمنين جزيرة العرب من الحجاز واليمن واليمامة وما سوى ذلك أن يكون من رأي أمير المؤمنين إذا سنحت نفسه عن أموالها من الصدقات وغيرها أن يختار لولايتها الخيار من أهل بيته وغيرهم لأن ذلك من تمام السيرة العادلة والكلمة الحسنة التي قد رزق الله أمير المؤمنين وأكرمه بها من الرأي الذي هو بإذن الله حمى ونظام لهذه الأمور كلها في الأمصار والأجناد والثغور والكور. إن الناس من الاستخراج والفساد ما قد علم أمير المؤمنين وبهم حاجة إلى تقويم آدابهم وطرائقهم ما

هو أشد من حاجتهم إلى أقواتهم التي يعيشون بها وأهل كل مصر وجند أو ثغر فقراء إلى أن يكون لهم من أهل الفقه والسنة والسير والنصيحة مؤدبون مقومون يذكرون ويبصرون الخطأ ويعظون عن الجهل ويمنعون عن البدع ويحذرون الفتن وينتقدون أمور عامة من هو بين أظهرهم حتى لا يخفى عليهم منها مهم ثم يستصلحون ذلك ويعالجون على ما استنكروا منه بالرأي والرفق والنصح ويرفعون ما أعياهم إلى من يرجون قوته عليهم مأمونين على سير ذلك وتحصينه بصراء بالرأي حين يبدو أو أطباء باستصاله قبل أن يتمكن. وفي كل قوم خواص رجال عندهم على هذا معونة إذا صُنعوا لذلك وتلطف لهم وأُعينوا على رأيهم وقووا على معاشهم ببعض ما يفرغهم لذلك ويبسطهم له. وخطر هذا جسيم في أمرين أحدهما برجوع أهل الفساد إلى الصلاح وأهل الفرقة إلى الألفة والأمر الآخر أن لا يتحرك متحرك في أمر من أمور العامة إلا وعين ناصحة ترمقه ولا يهمس هامس إلا وأذن شفيقة تصيخ نحوه. وإذا كان ذلك لم يقدر أهل الفساد على تربيص الأمور وتلقيحها وإذا لم تلقح كان نتائجها بإذن الله مأموناً.

وقد علمنا علماً لا يخالطه شك أن عامة قط لم تصلح من قبل أنفسها ولم يأتها الصلاح إلا من قبل خاصتها. وأن خاصة قط لم تصلح من قبل أنفسها وأنها لم يأتيها الصلاح إلا من قبل إمامها. وذلك لأن عدد الناس في ضعفتهم وجهالهم الذين لا يستغنون برأي أنفسهم ولا يحسنون العلم ولا يتقدمون في الأمور فإذا جعل الله فيهم خواص من أهل الدين والعقول ينظرون عليهم ويسمعون منهم اهتمت خواصهم بأمور عوامهم وأقبلوا عليه بجد ونصح ومثابرة وقوة جعل الله ذلك صلاحاً لجماعتهم وسبباً لأهل الصلاح من خواصهم وزيادة فيما أنعم الله به عليهم وبلاغاً إلى الخير كله. وحاجة

الخواص إلى الإمام الذي يصلحهم الله به كحاجة العامة إلى خواصهم وأعظم من ذلك فبالإمام يجمع الله أمرهم ويكبت أهل الطعن عليهم ويجمع رأيهم وكلمتهم ويبين لهم عند العامة منزلتهم ويجعل لهم الحجة والأيد والمقال على من نكب عن سبيل حقهم. فلما رأينا هذه الأمور ينتظم بعضها ببعض وعرفنا من أمر أمير المؤمنين ما يمثله جمع الله خواص المسلمين على الرغبة في حسن المعاونة والمؤازرة والسعي في صلاح عامتهم طمعنا لهم في ذلك يا أمير المؤمنين وطمعنا فيه لعامتهم ورجونا أن لا يعمل بهذا الأمر أحد إلا رزقه الله المتابعة فيه والقوة عليه. فإن الأمر إذا أعان على نفسه جعل للقائل مقالاً وهيأ للساعي نجاحاً. ولا حول ولا قوة إلا بالله وهو رب الخلق ووالي الأمر يقضي في أمورهم يدبر أمره بقدرة عزيزة وعلم سابق فنسأله أن يعزم لأمير المؤمنين على المراشد ويحصنه بالحفظ والثبات والسلام ولله الحمد والشكر.

تحميد لابن المقفع

الحمد لله ذي العظمة القاهرة والآلاء الظاهرة الذي لا يعجزه شيء ولا يمتنع منه ولا يُدفع قضاؤه ولا أمره وإنما يقول إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. والحمد لله الذي خلق الخلق بعلمه ودبر الأمور بحكمه وأنفذ فيما اختار واصطفى منها عزمه بقدرة منه عليها ومنكة منه لها لا معقب لحكمه ولا شريك له في شيء من الأمور يخلق ما يشاء ويختار ما كان للناس الخيرة في شيء من أمورهم سبحان الله وتعالى عما يشركون. والحمد لله الذي جعل صفوا ما اختار من الأمور دينه الذي ارتضى لنفسه ولمن أراد كرامته من عباده فقام به ملائكته المقربون يعظمون جلاله ويقدسون أسماءه ويذكرون ويذكرون آلاءه لا يتحسرون عن عبادته ولا يستكبرون يسبحون الليل

والنهار لا يفترون وقام به من اختار من أنبيائه وخلفائه وأوليائه في أرضه يطيعون أمره ويذبون عن محارمه ويصدقون بوعده ويوفون بعهده ويأخذون بحقه ويجاهدون عدوه وكان لهم عند ما وعدهم من تصديقه قولهم وإفلاحه حجتهم وإعزازه دينهم وإظهار حقهم وتمكينه لهم وكان لعدوه وعدوهم عندما أوعد هم من خزيه وإحلاله بأسهم وانتقامه منهم وغضبه عليهم مضى على ذلك ونفذ فيهم قضاؤه فيما مضى وهو ممضيه ومنفذه على ذلك فيما بقي ليتم نوره ولو كره الكافرون ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون. والحمد لله الذي لا يقضي في الأمور ولا يدبرها غيره ابتدأها بعلمه وأمضاها بقدرته وهو وليها ومنتهاها وولي الخيرة فيها والإمضاء لما أحب أن يمضي منها يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون. والحمد لله الفتاح العليم العزيز الحكيم ذي المن والطول والقدرة والحول الذي لا ممسك لما فتح لأوليائه من رحمته ولا دافع لما أنزل بأعدائه من نقمته ولا ردّ لأمره في ذلك وقضائه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. والحمد لله المثيب بحمده ومنه ابتداؤه والمنعم بشكره وعليه جزاؤه والمثني بالإيمان وهو عطاؤه.

كتب ابن المقفع إلى صديق ولدت له جارية:

بارك الله لكن في الابنة المستفادة وجعلها لكم زيناً وأجرى لكم بها خيراً فلا تكرهها فإنه الأمهات والأخوات والعمات والخالات ومنهن الباقيات الصالحات. وربّ غلام ساء أهله بعد مسرتهم وربّ جارية فرّحت أهلها بعد مساءتهم.

تعزية لابن المقفع عن ولد:

أعظم الله على المصيبة أجرك وأحسن على جليل الرزء ثوابك وعجل لك الخلف فيه وذخر لك الثواب عليه.

وله:

وإنما يستوجب على الله وعده من صبر لله بحقه فلا تجزعن إلى ما فجعت به من ولدك الفجيعة بالأجر عليه والعوض منه. فإنما أعظم المصيبتين عليك وأنكى المرزيتين لك. أخلف الله عليك بخير وذخر لك جزيل الثواب.

وتعزية له عن بنت:

جدد الله لك من هبته ما يكون خلفاً لك بما رزئته وعوضاً من المصيبة به ورزقك من الثواب عليه أضعاف ما رزأك به منها فما أقل كثير الدنيا في قليل الآخرة مع فناء هذه ودوام تلك.

وتعزية له أيضاً:

أعظم الله أجرك في كل مصيبة وأوزعك الشكر على كل نعمة. اعرف لله حقه واعتصم بما أمر به من الصبر تظفر بما وعد من عظيم الأجر.

وتعزية لابن المقفع:

أما بعد فإن أمر الآخرة والدنيا بيد الله هو يدبرهما ويقضي فيهما ما يشاء ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه فإن الله خلق الخلق بقدرته ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة لئلا يطمع أحد من خلقه في خلد الدنيا ووقت لكل شيء ميقات أجل لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون فليس أحد من خلقه إلا وهو مستيقن بالموت لا يرجو بأن يخلصه من ذلك أحد. نسأل الله خير المنقلب. وبلغني وفاة فلان فكانت وفاته من

المصائب العظام التي يحتسب ثوابها من ربنا الذي إليه منقلبنا ومعادنا وعليه ثوابنا فعليك بتقوى الله والصبر وحسن الظن بالله فإنه جعل لأهل الصبر صلوات منه ورحمة وجعلهم من المهتدين.

ولابن المقفع في السلامة:

أما بعد فقد أتاني كتابك فيما أخبرتنا عنه من صلاحك وصلاح ما قبلك وفي الذي ذكرت من ذلك نعمة مجللة عظيمة نحمد الله عليها وليها المنعم المفضل المحمود ونسأله أن يلهمنا وإياك من شكره وذكره ما به مزيدها وتأدية حقها. وسألت أن أكتب إليك بخبرنا ونحن على حال لو أطنبت في ذكرها لم يكن في ذلك إحصاءٌ للنعمة ولا اعتراف لكنه الحق فنرغب إلى الذي تزداد نعمه علينا في كل يوم وليلة تظاهراً ألا يجعل شكرنا منقوصاً ولا مدخولاً وأن يرزقنا مع كل نعمة كفاءها من المعرفة بفضله فيها والعمل في الأداء إليه حقها إنه ولي قدير.

وله كتاب للثقفي في السلامة:

أما بعد فإن مما خص الله به مناقبك الكريمة المحمودة الغانية عن القول والوصف أنك موضع المؤونات عن أخوانك تحمل عنهم أثقال الأمور مما وضعت عنه المؤونة ارتفاعك عن الأمور التي يطأطأ إليها الكلام على ألسنة الناس إذا أباحوه وهرجوه وضيعوا القول ونسوا القصد فيه وأخذوا به في كل فن وأصغوا بصفوته غير أهلها فيما لا ينبغي لهم من التشبيه والتوفير والتفضيل. كان من خبري بعدك أني قدمت بلد كذا فتهيأ لي بعض ما شخصت له والحمود على ذلك الله عز وجل وأنا على أن يأتيني خبرك محتاج فأما جملة خبري في فراقك فقلبي مكة كل ما سواك حرام فيها.

وله جواب في السلامة:

أما بعد فقد أتاني كتاب الأمير رجعة كتابي إليه فكان فيه تصديق الظن وتثبيت الرأي ودرك البغية والله محمود فأمتع الله بالأمير وأمتعه بصالح ما آتاه وزاهدة من الخيرات مستعيراً له فيه مستعملاً بطاعته التي بها يفوز الفائزون والذي رزق الله من الأمير فهو عندي عظيم نفيس وكل الذي قبلي عن مكافأته فمقصر إلا أنه ليس في النية تقصير ولا بلوغ لشيء من الأمور إلا بتوفيق الله عز وجل ومعونته والسلام.

وله في السلامة جواب أيضاً:

أما بعد فقد أتاني كتابك فيما أخبرتني عنه من صلاحك وصلاح ما قبلك وفي الذي ذكرت نعمة مجللة عظيمة نحمد عليها الله المنعم بها المحمود ونسأله أن يلهمنا وإياك من شكره وذكره ما به مزيدها وتأدية حقها نحن من عافية الله وكفايته ودفاعه على حال لو أطنبت في ذكرها لم يكن في ذلك إحصاء للنعمة ولا اعتراف لكنه الحق فنرغب إلى الذي يزيد في نعمه علينا تظاهراً ألا يجعل شكرنا منقوصاً ولا مدخولاً وأن يرزقنا مع كل نعمة كفاءً من المعرفة بفضله فيها والعمل في أدائها حقها.

وفي السلامة أيضاً (ولم يقل أهدا له):

كتبت إليك وأمير المؤمنين ومما يأتيه من لين الطاعة واتساق الكلمة عمت في الداني والقاصي من بلدانه وحواشي سلطانه على ما يحمد الله عليه فإن نعمة الله على أمير المؤمنين تجري على أذلالها وتنقاد في أسهل سبيلها.

قال المؤلف: ومن مختار ما كتب به من باب الشكر ولم أعرف إن كانت له أو لغيره لأنه أورد كتب بضم أولها ومع هذا فهذه هي الرسالة:

أما بعد فقد أعجز تعدادي عما أتعرف منك وأتعرف بك دانياً وناثياً وما أدري ما ابتدأني به من معروفك أرهن لشكري أم ما ثنيت به من برك لبدنك بعنايتك على نأيك أم ما ألبستني جماله على لسانك بإطرائك وثنائك أم ما عقدته لي عند غيرك بتلطيفك وتأتيك غير أني أعلم أنك لم تقصر في استحقاق شكر عني وأرجو ألا أكون مقصراً في معرفة ذلك منك ومن لم يقصر عنه ولم يؤت في شكره إلا من أعظم المعروف عنده مع جهده فقد دخل بالعلم والجهد في الشاكرين. غير أن الذي آنستني به من رفدك وتوطيدك قد زادني وحشة إليك وإن حفظ من حفظني فيك وإن لم يكن مقصراً وقد جدد لي المعرفة بوثارة مكاني عندك ولقد بلغت ن اصلحت لي الأمور والرجال وأصلحتني إلى صلاحي لنفسك فليس كتابي هذا باستبطائي لأحد حتى يستبطئه ولا شكري حتى يكون البدء منك ولكن روحت عن نفسي بذكرك وزينتها بشكرك وزكيتها بالإقرار بفضلك.

ولابن المقفع:

إن الناس لم يعدموا أن يطلبوا الحوائج إلى الخواص من الأخوان وأن يتواصلوا بالحقوق ويرغبوا إلى أهل المقامات ويتوسلوا لى الأكفاء وأنت بحمد الله ونعمته من أهل الخير وممن أعان عليه وبذلك لأهل ثقته المصافين وإن بذل النفوس فيه وإعطاء الرغيب ليس منك ببكر ولا طريف بل هو تليد أتلده أولكم لآخركم وأورثه أكابركم أصاغركم ومن حاجتي كذا وأنت أحق من طلبت إليه واستعنته على حوادث الدهر وأنزلت به أمري لقرب نسبك وكريم حسبك ونباهتك وعلو منزلتك وجسيم طبائعك وعوام

أياديك على عشيرتك وغيرها فليكن من رأيك ما حملتك من حاجتي على قدر قسم الله لك من فضله وما عودك من منه ووسع غيري من نعمائك وإحسانك.

ولابن المقفع أيضاً:

أما بعد فإن من قضى الحوائج لأخوانه واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عمل لا لهم. والمعروف إذا وضع عند من لا يشكره فهو زرع لا بد لزارعه من حصاده أو لعقبة من بعده. وكتبت إلينا ولحالنا التي نحن بها نذكرك حاجة أول ما فيها معروف تستوجب بد الشكر علينا وتدخر به الأيادي قبلنا.

ولعبد الله بن المقفع إلى يحيى بن زياد (الحارثي) ابتداءً في المؤاخاة:

أما بعد فإن أهل الفضل في اللب والوفاء في الود والكرم في الخلق لهم من الثناء الحسن في الناس لسان صدق يشيد بفضلهم ويخبر عن صحة ودهم وثقة مؤاخاتهم فيتحير إليهم رغبة الأخوان ويصطفي لهم سلامة صدورهم ويجتبي لهم ثمرة قلوبهم فلا مثني أفضل تقريظاً ولا مخبر أصدق أحدوثة منه. وقد لزمت من الوفاء والكرم فيما بينك وبين الناس طريقة محمودة نسبت إلى مزيتها في الفضل وجعل بها ثناؤك في الذكر وشهد لك بها لسان الصدق فعرفت بمناقبها ووسمت بمحاسنها فأسرع إليك الأخوان برغبتهم مستبقين يبتدرون ودك ويصلون حبلك ابتدار أهل التنافس في حظ رغيب نصبت لهم غاية يجري إليها الطالبون ويفوز بها السابقون. فمن أثبت الله عندك بموضع الحرز والثقة وملأ بك يده من أخي وفاء وصلة واستنام منك إلى شعب مأمون وعهد محفوظ وصار مغموراً بفضلك عليه في الود يتعاطى من مكافأتك ما لا يستطيع ويطلب من أثرك في ذلك غاية بلوغها شديد. فلو كنت لا تؤاخي من الأخوان إلا من

كافأ بودك وبلغ من الغايات حدك ما آخيت أحداً ولصرت من الأخوان صفراً ولكن أخوانك يقرون لك بالفضل وتقبل أنت ميسورهم من الود ولا يجشمهم كنف مكافأتك ولا بلوغ فضلك فيما بينك وبينهم فإنما مثلك في ذلك ومثلهم كما قال الأول:

ومن ينازع سعيد الخير في حسب ... يترع طليحاً ويقصر قيده الصعد

ولم أرد بهذا الثناء عليك تزكيتك ليكون ذلك قربة عندك وآخية لي لديك ولكن تحريت فيما وصفت من ذلك الحق والصدق وتنكبت الإثم والباطل فإن القليل من الصدق البريء من الكذب أفضل من كثير الصدق المشوب بالباطل. ولقد وصفت من مناقبك ومحاسن أمورك وإني لأخاف الفتنة عليك حين تسمع بتزكية نفسك وذكري ما ذكرت من فضلك لأن المدح مفسدة للقلب مبعثة للعُجب. ثم رجوت لك المنعة والعصمة لأني لم أذكر إلا حقاً والحق ينفي من اللبيب العُجب وخيلاء الكبر ويحمله على الاقتصاد والتواضع. وقد رأيت إذ كنت في الفضل والوفاء على ما وصفت منك أن آخذ نصيبي من ودك وأصل وثيقة حبلي بحبلك فيجري بيننا من الإخاء أواصر الأسباب التي بها يستحكم الود ويدوم العهد وعلمت أن تركي ذلك غبن وإضاعتي إياه جهل لأن التارك للحظ داخل في الغبن والعادل عن الرشد موجف إلى الغي فارغب من ودي فيما رغبت فيه من دوك فإني لم أدع شيئاً أستثني به منك الرغبة وأجتر به منك المودة إلا وقد اقتدت إليك ذريعته وأعملت نحوك مطيته لترى حرصي على مودتك ورغبتي في مؤاخاتك والسلام.

جواب من يحيى بن زياد في صفة الإخاء:

أما بعد فإنا لما رأينا موضع الإخاء ممن يحتشه في تأنيسه من الوحشة وتقريبه لذي البعدة ومشاركته بين ذوي الأرحام في القربة لم نرض بمعرفة عينه دون معرفة نسبته فنسبنا الإخاء فوجدناه في نسبته لا يستحق اسم الإخاء إلا بالوفاء فلما انتقلنا عنه إلى الوفاء فنسبناه انتسب لنا إلى الصبر فوجدناه محتوياً على الكرم والنجدة والصدق والحياء والنجابة والزكانة وسائر ما لا يأتي عليه العدد من المحامد ثم انحدرنا فيما أصعدنا فيه من هذا النسب فعدنا إلى الإخاء فوجدناه لا يقوم به إلا من هذه الخصال كلها أخلاقه. ولما استوجب الإخاء مسالك المحمدة كلها رأينا أن نتخير له المواضع في صواب التوزير وأحكام التقدير وعلمنا أن الاحتباس به أحسن من الندم بعد بذله واستوجب إذا كان جماع المحامد أن نتخير له محامله التي كان يحمل عليها فكان الناس فيما احتسبنا به عنهم من الإخاء على صنفين فصنف عذرونا بالتحبس للتخير إذ كان التخير من شأنهم وصنف هم ذوو سرعة إلى الإخاء وسرعة في الانتهاء فقدموا اللائمة واستعجلوا بالمودة وتركوا باب التروية واستحلوا عاجل المحبة ولهوا عن آجل الثقة فكانوا بذلك أهل لائمة ولم يجد المعذورون إلا الصبر على تلك والاستعمال الرأي والاستعداد بالعذر عند الحاجة. وقد فهمت كتابك إليّ بالمودة واستحثاثك إياي في الأخوة وما دنوت به من حرمة المحبة فنازعت إليك نفسي بمثل الذي نازعت به إليّ نفسك فواثبتني عادة الاستعمال للتروية في الخبرة والتخير للنجبة فجئت عن كتابك جولة غير نافرة ثم راجعت مقاربتك فقلت ألقى إليّ أسباب المودة قبل كشف الغطاء بالخبرة فخشيت أن تعذر نفسك بالتقدم وتحدث الزهادة للتعسف بالجهالة عند الخبرة فجئت عن هذا جولة كالجولة الأولى ثم عاودت إسعافك وطاعة التشوق ومعصية

التحير ثم قلت ما حال من جعل الظن دون اليقين والتقدم قبل الوثيقة فلما كان الرأي لي خصماً تنكبت الوقوع في خلافه فلم أجد إلا الإدبار عن إقبالك سبيلاً ولا مع ذلك في طاعة الشوق حجة

فتغيبت السبيل بين ذلك إلى إعطائك طرف حبل الإخاء في غير الخروج من سبيل التخير وكرهت أن تستعبدني بالإخاء قبل أن أعرفك بحسن المنكة وأن تستظهرني على الأعداء قبل أن أعرفك بعدل السيرة وأن تستضيء بي في ظلم الجهل قبل أن أعرفك بعقد اللب وأن تستمكن بي في المطالب قبل أن أعرفك بقصد الهمة فقدمت إليك الترحيب والعدة وأحسنت عنك المفاوضة والثقة وتنظرت أن تشر لي فأذوق جناك فأعرفك بالمذاقة في الطعم إما لافظاً وإما مستبلعاً فإن كان اللفظ لم أكن من الرأي في قلبه وإن كان الاستبلاع ذوقتك ما تشوقت إليه مما ادعيت مني به الخبرة وأول ما أنا معتبر به منك المواظبة على استنجاح ما سألت أو السآمة له فإن كانت المواظبة فأحد الشهود المعدلين وإن كانت السآمة فأنت عن حمل ما تعطي أضعف منك عن جميل ما تطلب. طالعني بكتبك فإنك قد حللت قبلي عقداً من التحفظ وعقدت عقداً من التقرب والسلام.

الصنائع الإسلامية

(تابع ما قبله)

إذا أطلق لفظ النقش عند المسلمين فلا ينبغي أن يفهم منه أنه يراد به تمثيل صورة ذات روح بل قد تكون تلك الصور نقوشاً يراد بها أمر آخر. ومما يعجب له أنه يوجد في هذا الكتاب الوجيز إشارة ضعيفة لصورة فارس يمسك رمحه بيده نُقش على القبة

في مسجد ببغداد. ولم يزد المسيو ميجون بأن هذا الفارس يشير إلى الناحية التي يجيء منها الهواء. فكان هذا التمثال ضرباً من دوارة على الهواء صنعت من الحديد المصفح وجعلت في الهواء تمثل فارساً والرمح بيده وقد ذكروا أسطورة بشأنها. فكان العامة يعتقدون أن هذا الفارس يدل بقوة تعويذة معه على الناحية التي تنشأ فيها ثورة من مملكة الخلفاء العباسيين.

وليس النقش عند المسلمين إلا خادماً خاضعاً للهندسة على نحو ما كانت الفلسفة من علم الكلام في القرون الوسطى. والأسود التي رآها ابن بطوطة قد صنعت من الرخام المستخرج في أفروجيافرجيا في آسيا الوسطى حيث يكثر فيها. وبلغ من احترام السلاجقة للنقش أن كانوا يتزلونه في الحوائط. وليس للتمثال من الخشب التي صنعها صناع من المسلمين بأمور الطولونيين علاقة بالصنائع الإسلامية بل هي فرع متأخر من فروع الصناعة الوطنية. وقد بدأت في مصر صناعة النقش للزينة باستعمال الكلس والرخام غير المسحوق بالآلة بل بيد صنع الأيدي وأقدم ما وجد من ضروبها شكل مهندس ممزوج بعروق خيالية ظريفة. أما الحجر للزينة فقلما يوجد إلا في المساجد التي يرد عهدها إلى القرن الرابع عشر وعلى العكس في إسبانيا فإنا نرى هذه الصناعة مزهرة فيها منذ أوائل الخلافة الأموية.

وقد بقي لنا شاهد واحد منها وهو مغسل الوضوء المصنوع من الرخام ولا يزال محفوظاً إلى الآن في متحف الآثار في مدريد وجرن الرخام وحوض الأسود في قصر الحمراء معروفان موصوفان. إلا أن تزيين المصانع ما كان إلا من الجبس موضوعاً في

القوالب وضعاً محكماً مما يبدو في هيئة بديعة تفوق أجمل نموذجات الهندسة. وإن قصر الحمراء على جماله لم يعمل إلا من معجون الجبس.

لا يأخذنا العجب إذا رأينا السلجوقيين في آسيا الوسطى قد أبقوا لنا صوراً تمثل الصورة الإنسانية. ولئن كان المهندسون في زمنهم سوريين أو روميين فإن الأفكار السائدة في بلاط قونية أن منشأها إيراني زادت انتشاراً بما كان لشمس الدين التبريزي وجلال الدين الرومي الصوفيين العظيمين من النفوذ وكان الأول صاحب السر والثاني مؤسس طريقة الدراويش المولوية. وكان سلاطين السلجوقيين مهوسين أشد التهوس بكل ما هو من أصل فارسي حتى أنهم كانوا يدعون أبناءهم بأسماء استخرجوها من قصص البطال في الملاحم. وظلت الصناعة التي انتشرت بهذا التأثير محصورة في آسيا الصغرى ولم تنتشر في سائر البلاد الإسلامية.

أخذت العرب صناعة الفسيفساء عن البيزنطيين فاستجلب من الأستانة الخليفة عبد الرحمن إلى قرطبة صناعاً من الروم ليزين مسجدها. وخابر الوليد ملك القسطنطينية ليبعث له بالعمال والمواد اللازمة لتزويق المسجد الأموي في دمشق وهي كنيسة القديس يوحنا الدمشقي القديمة. تغير هذا المسجد ولم يبق منه حريق **1893** ما كان سلم من آثاره. وفي سنة **418** هـ (**1027**م) جرى إصلاح فسيفساء قبة الصخرة كما قرأت ذلك في الصورة الشمسية من الصفحة الثالثة والثمانين من الجزء الثاني الرسم **73** وقد كسي داخل المصانع الإسلامية في القاهرة بأنواع من الزينة صنعت من الرخام على أبهج صورة وأزهاها.

إن ما يرى في مصر من الخشب المنقوش لا يتأتى إلا أن يكون مجلوباً من سوريا أو من آسيا الصغرى. ومعلوم أن في مصر صناعة خاصة بها لا يرى لها أثر في غيرها من الأقطار ألا وهي صناعة المشربيات وهي أقفاص توافذ على طنف بارزة بحيث تكون للنوافذ التي تطل على الشوارع أقفاص لئلا يتطلع إلى ما وراءها متطلع ولو بدون قصد. من أجل هذا يستعمل القوم (شعريات) من أقفاص خشب رقيق. وفي مصر يستعمل خشب غليظ خرط بالمخرطة وجعل على صورة يتفنن فيها كل التفنن. وفي المتحف العربي في القاهرة حشوات منقوشة غاية في الجمال ومن جملتها ثلاثة محاريب توفر المسيو رافيس على البحث فيها وهي من عهد الفاطميين وقد كانت الحشواتفي القرن الثالث عشر أصغر مما هي الآن وخطوطها أدق وأشكالها أكثر تنويعاً وصورها التزويقية مطلقة. وصورت على أبواب البيمارستان القلاووني صور ذات أرواح. والفرق ظاهر بين طريقة هذه المصانع في الصنع والحشوات التي جعلت على القبور الفارغة في ذاك العهد والصورة العامة مربعة في هذه وذات خطوط مستدير في أبواب البيمارستان. ويتجلى الفرق للأنظار بالمقابلة بين النقوش الصغيرة التي وردت في صفحة **100** و **101** الموضوعة إحداها بجانب الأخرى فإن الحشوات صنعة عربية مصرية أما الأبواب فصنعة فارسية. ومن هنا أتت الصور ذات الأرواح. وظاهر أنه كان في ذاك العهد في القاهرة طريقة فارسية في النقوش جاءت زيادة على ما كان فيها من الصناعة الوطنية وليس ذلك من ارتقاء الصناعة المحلية كما لاحظ ذلك المسيو ميجون. وارى أنه لم يبن رأيه على صورة باتة كافية وإن شئت فقل على صورة ظاهرة. المنبر في المسجد من المواد التي لا يستغنى عنها فمنه ما يبنى بالحجر مثل منبر

مسجد يرقوق في الصحراء بالقرب من القاهرة ومن العادة أن يعمل المنبر من الخشب. وقد عرفت من المنابر نموذجات بديعة كمنبر مسجد ابن طولون الذي أمر ببنائه أحد سلاطين المماليك السلطان لاجين ولا تزال حشواته العمودية محفوظة في لندرا ومثل منبر قاتيباي ومسجد علاء الدين الأول قاي قوباد في قونية وجامع الزيتونة في تونس وغيرها. وهناك شيء آخر خاص بمساجد مصر وأعني به الكرسي أو الخزانة المسدسة الزوايا والأضلاع كانوا يضعون عليها المصاحف للتلاوة فإذا فرغوا خبؤوها في داخلها وكانت حشواتها مزينة بتطعيم (تترسل) من العاج ومن خشب ملون.

ويوضع المصحف في المساجد العثمانية مفتوحاً أو مطبوقاً على دعامة تطبق على شكل تسمى رحلاية. وقد فات المسيو ميجون أن يذكر هذا المتاع الذي يعمل من خشب الجوز المتين ويطعم بأشكال من عرق اللؤلؤ والعاج (صنع الأستانة) على نمط الأخونة الواطئة التي يقال لها اسكملة.

وفي إسبانيا أجمل إنموذجات من النقش على العاج أخذها المسلمون عن القوط الغربيين ولم يستطع أحد أن يوفق بين معامل هذه الصناعة ومراكز إخراجها بل ثبت من فحص هذه المصنوعات التي لا تزال محفوظة بكمية وافرة أنها صناعة محكمة تدل على فرط مهارة فنية تقلبت عليها الأحوال بأهوالها ومنها الشرقي ومنها البيزنطي. والنوحان البديعان من العاج اللذان لم يبرحا محفوظين في مجموعة كاران في متحف بارجللو في فلورنسة هما من أصل يختلف أحدهما عن الآخر ولا نعلم من أمرهما شيئاً يذكر. بيد أن النسور والأسود المرسومة على النوحين هي من أصل آشوري وقد رسمت عليها

رسماً دل على مهارة تحسنا على المقارنة بينها وبين نحاس الموصل وشواطئ دجلة حيث بقية التقاليد الصناعية القديمة محفوظة بحالها خلال القرون الوسطى.

أما الصياغة فقديمة العهد رأى الشاعر الرحالة الفارسي ناصر خسرو في مدينة صور ثريات من الذهب والفضة وفي القدس أبواباً مغطاة بألواح من النحاس بديعة الصنع وفي القاهرة عرش المستنصر الفاطمي معمولاً من الذهب والفضة الخالصة وقد نقشت عليه كتابات وصورت صور صيد وقنص. وإن سفط العاج في كنيسة بايو (فرنسا) المنبسة بالفضة المنقورة (المخرمة) وأسفاط كنيسة كوار (سويسرا) وسان سيرفي (فرنسا) ومايسترخت (هولاندة) وسان مارك في البندقية لتمثل لأنظارنا ما كانت عليه صناعة الصياغة من البهاء في القرن الثاني عشر. وإلى ذلك العهد يرتقي صنع النحاس الجميل المنبس الذي حفظ على اليوم ولكن مما لا شك فيه أن ازدهار هذه الصناعة أقدم من ذلك وأن ما نعثر عليه من ذاك التاريخ من الأعلاق النفيسة ليس إلا زبدة قرون طويلة وأبحاث متصلة. ولقد تساءل بعضهم عن السبب الرئيسي في انتشار صناعة النحاس المخفور ببلاد ما بين النهرين ولاسيما الموصل. ويوشك أن يكون ذلك من ومجاورة معادن أرغني والخابور بالقرب من مناجم الخابور جبل مغارات الذي يستخرج منه النحاس الخام ويذوب ثم ينقل إلى جميع بلاد آسيا قديماً.

وتبين من عرض هذه المصانع بعضها في جانب الآخر أن التزويق المخفور في صور بارزة هو أقدم طرق النقش على المصنوعات النحاسية. أما تنزيل الذهب والفضة فلم يحدث إلا مؤخراً. وقد تغلبت صور البشر والحيوانات في الموصل مما يدل على أن الصناعة

فارسية الأصل حفظ فيها الساسانيون تقاليدهم الصناعية التي يرد عهدها كما قال لونكبريه إلى عهد الصور البارزة الآشورية.

وقد ساق البحث المسيو ماكس فان برشم فحلّ الكتابات التي كتبت على أجمل هذه المصنوعات وقسمها قسمين رئيسيين أو مجموعتين أساسيتين إحداهما شرقية انتشرت في خراسان كما انتشرت في الموصل والثانية غربية أي سورية مصرية وهي عبارة عن نحاس صنع في زمن اليوبيين في أوائل القرن الثالث عشر. وكان من غارات المغول أن قطعت زمناً قصيراً سلسلة هذه الأعمال وجاء المماليك في القرنين التاليين فوقوا هذه الصناعة بأعمال اتصل بنا علمها وهي كثيرة. وما صناع الشام ومصر إلا تلاميذ صناع الموصل وبهم تخرجوا.

وإذا بحثنا في القمز (النحاس الأحمر) نذهل من رؤية المصانع المنحطة بجمالها مثل صورة العنقاء في بيز التي جلبت من مصر على عهد الصليبيين وصورة الأيل من صنع الفاطميين الموجود في متحف امة في ميونيخ والجواد المحفوظ في متحف قرطبة والطسوت المصنولة على شكل الأوز والمباخر على شكل الببغاء المحفوظة في متحف اللوفر. وما أعجب مصابيح المساجد المصنوعة من القمز والحديد كالتي لا تزال محفوظة في المتحف الأثري في مدريد وقد جيء بها من غرناطة ومثل الموجودة في دارة الآثار العربية بالقاهرة المأخوذة من جامع السلطان حسن وكثير أمثالها.

أما الأسنحة فلم يجر حتى الآن تنظيم تاريخها ولم يذكر هذا المختصر الذي نحن بصدده سوى إشارات موجزة بشأنها. ويرجى أن يطلعنا المسيو موزر ذات يوم على ما وقف عليه وجمعه من الإيضاحات بشأن صنع الفولاذ فتكون أعماله مساعدة لنا على تنظيم

المعلومات المبهمة التي حصلنا عليها حتى الآن. ولطالما تكلم الناس عن فولاذ دمشق لغرابة سقايته. ولما أرسل السلطان بيبرس من سلاطين المماليك هدايا سياسية على باراق سلطان المغول في تركستان لبعث إليه بأسلحة دمشقية. ولما استولى تيمورلنك على دمشق أخذ معه إلى سمرقند صناع الفولاذ الدمشقي. وقد كان في القاهرة في شارع النحاسين الحالي بين القصرين سوق للسلاح رائجة كثيراً إلا أننا لا نعلم شيئاً عن أصل الأسلحة التي كانت تباع فيها. وليس ثمة ما يدل على أنه كان في مصر معامل لصنع نصال الفولاذ وربما كانت تصنع فيها مقابض السيوف وأغمادها ويصلحونها على النحو الذي اختاروه وهذا عمل غير عمل نصال الفولاذ ويجب أن يميز عند تنسيق هذه الآثار في المستقبل بين معالم صنع النصال ومعامل تركيبها. ولم يتعرض لذلك كتاب الوجيز ولا يستطيع أن يتكلم الآن إلا على المعامل المتأخرة. ومع هذا فقد توصل المسيو بوتين بعد البحث في المقابلة بين الصنال إلى أن المعمول منها في دمشق هو مزيج من الحديد والفولاذ وأنه في الأغلب من سكب بلاد الفرس وإذا كانت النصال في الهند ذات لمعة بذوبانها فهي منقوشة بالطرق. وقبل الفتح العربي كانت طليطلة في إسبانيا مشهورة بسقي نصالها. وفتح عبد الرحمن الثاني معملاً لها (822 ــ 852) ولم يبق ولا حسام إسباني مغربي من قبل القرن الخامس عشر وما بقي منها مما يرد صنعه إلى ذاك العهد جيء به من غرناطة وتاريخ الأسلحة في بلاد فارس والمملكة العثمانية غريب والمعلومات عنه أغرب. وكنا نود أن تكون أغزر مما وصلنا ولكن تاريخ الأسلحة كما قلت سابقاً لم يوضع بعد.

يعرف من يسيحون في الشرق اسم الخنجر والقامة ومع هذا لا تجد لها ذكراً بين الأسلحة العثمانية والفارسية. ولم يقولوا كلمة عن الزمان والمكان الذي استعيض فيه عن السيف القديم المستقيم بنصل معوج. وإن أسنة لارماح والبنادق والطبنجات وقطع الخيل (كوباناتها) على خطارتها عند الساسانيين والمصورين بالخطوط اللطيفة من الفرس مما بقي كثير من أمثالها في طي الخفاء قد كان يرجى أن نعرف عنها شيئاً يركن إليه لخطارتها وفائدتها للتاريخ على أنه قد أطيل البحث في صنع الأواني الخزفية وهي صناعة جديرة بأن يفاخر بها. أصلها من فارس وإن لم يذكر المسيو ميجون ذكراً تاماً. وتدل مصانع الأخمانيين في سوس على ذلك دلالة صريحة وربما كانت هذه المصانع موروثة لهم عن الصنائع الآشورية.

وتمتاز مساجد وارمين وأصفهان بما جعل على جدرانها من الطلاء الذي يعكس أشعة ذهبية ولكنها عبارة عن قشرة رقيقة من النحاس. ولقد جلبت المربعات الموضوعة للزينة من مساجد سيدي عقبة في القيروان من مدينة بغداد (وهي المدينة التي أنشأها العباسيون بتأثيرات فارسية وكان الفرس الذين أتى بهم أبو مسلم هم سبب رفعتها) جلبها إلى أفريقيا مؤسسة دولة الأغالبة سنة **894** وصنعت معامل مدينة الرقة على الفرات بضع قطع سلمت إلى هذا العهد وكثيراً من بقايا الخزف. وقد ألف المسيو فاليس عدة كتب للتوسع في البحث عن الأواني المجلوة في فارس واصلها من الري التي كانت تعرف قديماً باسم راجيس. وإذ كثر البحث في هذا الموضوع سائغ لنا أن نبين تاريخ حدوث هذه الصناعة فقد ذكر أحد الباحثين في هذا الشأن واسمه المسيو أوتوفون فالك في كتابه صناعة الكاشاني القديم أن ألواح الزجاج المنونة البراقة التي

بقيت من القرن الثلاث عشر في إيران هي دهان على سطح مستو وإن الصفحات التي كتبت عليها كتابات بارزة لم تظهر إلا في القرن الرابع عشر. ودامت صناعة التنسيع خلال القرون الثلاثة التالية وبلغت درجة من التفنن غريبة. وإن طبخ بعض القطع برفع الحرارة فيها إلى درجة عالية قد جعلها كالصيني على ما يتجلى ذلك فيها. وقد بدت على عهد المغول تأثيرات الصناعة الصينية فانتشرت صور التنين وأبي الهول وغصن الخوخ وهو مزهر وكل ذلك من أصل صيني. دلنا ما عثر عليه في مصر في سهل الفسطاط أو مصر العتيقة على ما كانت عليه صناعة الخزف على عهد الفاطميين. وأصل نقوشها على الأقل فارسية وإن كان صنعها يختلف على أن المواد الأولية هي من مصر نفسها. وقد أثبت الرحالة ناصر خسرو أمراً غريباً من الأواني الخزفية ذات الألوان المتغيرة التي شاهدها في القاهرة وهذه الألوان هي من صفات الكاشاني الذي يلمع كحد النصال وعليه فيفهم من ذلك أن نظر هذا السائح الفارسي لم يقع في بلاده على ما يماثلها ون ما وجد منها في الري لا يرتقي عهده في الحقيقة إلا إلى أواخر القرن الثاني عشر. على أن ناصر خسرو رحل في الحادي عشر. وتوجد في هذا النوع صناعة شامية مصرية.

وفي داخل مساجد السلجوقيين في قونية وكنها من القرن الثلاث عشر صور متألق في صنعها من المربعات على الكاشاني. وكان محمد بن عثمان المعلم الذي كسا الحوائط بهذا النوع من الفسيفساء (أي الخزف المطلي والكاشاني المقطع) في مدرسة صرت شالو في مدينة طوس في خراسان وهي المدينة التي أصبحت مدينة المشهد وبقي من ذاك العهد هذا الضرب من الزينة في بورصة والأستانة من البلاد العثمانية.

بدء بالبحث في الكاشاني الإسباني المغربي منذ عهد طويل وفي سنة **1844** أظهره ريو كرو أمين متحف السيفر للمرة الأولى. أما اليوم فقد أثبت تاريخه أحسن ثبوت. والظاهر أن هذه الصناعة جاءت من بغداد. وربما كان ذلك عن طريق القيروان لا تواً وتعد أواني قصر الحمراء من بدائع صناعة مالقة. ويظهر أنها نشأت في القرن الرابع عشر وهو العهد الذي زار ابن بطوطة في هذه المدينة المعامل التي كانت تصنع فيها الأواني الخزفية الجميلة أو الصيني المذهب. والزينة بتصوير الوعول تدل على بقاء شكل قديم لا يتأتى صدوره إلا من الشرق.

أما صناعة الأقداح المزينة باليناً فلا يليق إغفال الكلام عليها لخطرها. وقد كانت هذه النموذجات من الأقداح في أوائل الفتوحات العربية تستعمل للنعيار على صورة أقراص المعجون الكبير كتبت عليها التواريخ ودرسها المسيو كازانوفا للوقوف على حقيقتها. ثم أنك تجد أكواباً منونة بضروب الألوان كقوس قزح لطول بقائها في الأرض. وربما اختلطت أحياناً بالأكواب القديمة والأكواب التي نقشت عليها صور مطبوعة يرغب فيها أرباب الفن رغبة خاصة مثل الكأس الصغيرة المرسوم عليها أسود ووعول وقد اقتناها مؤخراً متحف اللوفر. وتشير الأقداح المزينة باليناً ولاسيما مصابيح المساجد المصنوعة من الزجاج التي ربما كانت مأخوذة عن مملة الروم البيزنطية إلى مهارة صناعها الغريبة على حين تدل مادة الزجاج المملوءة بالفقاقيع والعيوب على أنها ما كانت بجودتها ابداً من الطراز الأول. ومن هذه المصابيح مجموعة فيها ستون قطعة في متحف الآثار العربية في القاهرة وهي أتم مجموعة وجدت.

ومن المحتمل أن هذا الزجاج لم يصنع في مصر حيث اخترع الزجاج على قول سياح الروم. وتكلم مؤلفو العرب على زجاج صور وذكر الرحالة بنيامين دي توديل أيضاً شيئاً عنها وقال أنه صادف أيضاً عشرة معامل للزجاج في إنطاكية كما قال يعقوب دي فيتري أنه رأى منها في عكا. وقد نقلت هذه الصناعة من صور إلى دمشق وفيها رأى الرحالة بوجيبومي سنة **1346** معامل الزجاج تشغل على طول المسجد الأموي وقد أخذ تيمورلنك صناع الزجاج إلى سمرقند كما فعل بصناع الفولاذ. وأثبت كتاب العرب والفرس أنه كان في حلب والعراق معامل للزجاج أيضاً.

يتبين من الأقمشة العربية أنها كنت بديء بدء مصنوعة على طراز ساساني أو قبطي أو رومي ويستفاد من حفريات الصنا أن الأقمشة الرومية والقبطية طارت كلها شيئاً واحداً بعد وكان التأثير الساساني فيها مستحكماً فإن صور الحروب والصيود وصور الفرسان الذين يعدون مسرعين ويرمون الأيائل والظباء بالنشاب هي من الكتابات الفارسية. وقد امتلأت ذخائر كنائسنا بقطع من الأقمشة بقيت زماناً لم تعرف البلد التي صنعت فيه وما هي في الحقيقة إلا من صنع الشرق في القرون الوسطى. ثم اشتهرت فارس بعد حين بالأطلس والمخمل (القطيفة) المقطع وقد رسمت عليه صور أشخاص وسط الأزاهير المتكاثفة واشتهرت مدينة كاشان بصنع الاستبرق والحبر.

ولما فتح السلطان سليمان طوريس أخذ نساج الحرير إلى البلاد العثمانية وأنشؤا فيها معامل صنعت هذه الأقمشة الحريرية والمخمل الكتب واشتهرت باسم حرير بورصة. وانتقلت هذه المصنوعات من آسيا الصغرى إلى البندقي وفلورنسة وجين وفرنسا ولم يعودوا يرسمون عليها صور أشخاص واقتصر في تزيين الأقمشة على الأزهار جعلوها

بلا معنى وضعي كما في قطع الأواني الخزفية ويستفيد مما قاله عماري (العالم الإيطالي) أنه كان في صقلية قبل الفتح النورماندي فندق فرش بالوشي وكان ملاصقاً لقصر الأمراء الذين كانوا يحكمون على الجزيرة باسم الفاطميين. ودعت حملات روجر الثاني على بلاد اليونان إلى أن يجلب معه إلى بلرمة صناع الحرير واسم مانياتري الذي يطلق بالإفرنسية على معامل الحرير جاءنا في الأصل من مدينة مان إحدى مدن جنوبي بلاد المورة اليونانية.

ولما غلب هرقل خسرو الثاني عثر الجيش الروماني في قصر يزدجرد (داسكارات الملك) على طنافس مطرزة بالإبرة ووقع في أيدي العرب عندما فتحوا المدائن بسط منسوجة بالذهب والفضة ومرصعة بالأحجار الكريمة. ويعتقدون أن البسط ذات الوبر الكبير من أصل فارسي ومن فارس يجب أن تطلب إلا أنه لم يبق شيء من تلك العصور المتوغلة في القدم. ولأجل تنسيق تاريخ البسط رأوا أن يرتبوها بحسب أشكالها والتواريخ التي اهتدي إليها من صور أساليب التصوير الفلامندي والهولاندي والإيطالي. واخترع هذه الطريقة البديعة المسيو لسينج سنة **1877** وكانت أوروبا إذ ذاك غاصة بالبسط التي تجلبها البندقية وبروج فافتتن المصورون بنظافة ألوانها وجودة نقشها وبادروا إلى إدخالها في نقوشهم ورسومهم. ويظهر أن البساط القديم المزين بالصور على أسلوب بديع الذي دخل مؤخراً في ملك متحف الإمبراطور فريدريك في برلين واهتم به كل من المسيو كارابا سيك والمسيو ريجل كان أصله من قونية من مخلفات سلاطين السلجوقيين الذي حكموا فيها فهو مما صنع في القرن الثالث عشر. أما البسط العجمية المرسوم عليها صور الطيور فإنها من بدائع ما حاكه كبار صنع

الأيدي. وكذلك الحال في البسط المنقوشة بالأزهار الكبيرة ومصابيح المساجد والأواني فإنها تؤلف طبقة بديعة أيضاً وعلى العكس في البسط المزينة بصورة مهندسة فإنها من مصنوعات آسيا الصغرى وما زالت إلى اليوم كل من مدينتي جورودس وعشاق من مراكزها العظيمة.

وبعد فهل من الممكن أن نشير إلى ما أثرته الصناعة الإسلامية في صنائع الغرب. نعم إذا أريد بذلك جمع الصنائع الماضية صبرة واحدة وتوحيدها كلها معاً على محو ما كانت على عهد الفتح العربي وكما يحدث أبداً عندما تنشأ ممالك كبيرة متسعة. وإذ بدل هذا الفتح وجه الشرق كان الداعي إلى اختلاط آسيا العليا بالغرب في عدة أماكن. وإنك لتجد النقوش المسماة (هوم) بلا داع وقد رسمت عليها الشجرة المقدسة أو حياة الآشوريين على نحو ما اقتبسها الساسانيون سواء كانت وحدها أو جعل على جانبيها حيوانات قائمة أو رابضة وكذلك الطريقة القديمة في صراع الحيوانات.

ولقد كانت سفن العرب تتقدم إلى البحر الأتلانتيكي منذ عهد الأسرة الكارولنجية فحملت نقود الأمويين بواسطة الصلات التجاري إلى روسيا وبولونيا والدانيمرك والسويد ووجدت أنسجة مكتوب عليها كتابات كوفية محرفة في أطر أبواب الكنائس في نوتردام في بوي نفالي وفي كنيسة فوت شيهان الفرنسويتين وعلى كثير من المصانع وفي بعض الحال كما عثر على مثل ذلك في أبراج كاتدرائية شارتر ونقل المصورون بعض الصور الشرقية بالحرف.

يرى المسيو ميجون أن يدرس صناعنا تلك الصنائع لأنها بقوة جمال أشكالها ودقة وضعها وصنعها المعقول ولمعان ألوانها ليس لها ما يشبهها بكثرة الصور والنطف

السامي. وقد جرب بعضهم تقييد تلك الصنائع فأفلحوا في اقتباسها على نحو ما فعلوا في قباب زاوية قصر المعرض العام سنة **1889** فوضعوا فوق الحديد الذي يحول بين الأقسام واتخذوه حيطاناً مصفحات من الكاشاني ذي النقوش الفارسية فكانت بذلك أو تجربة نجحت في هذا السبيل.

كان بذخ ملوك المسلمين من الدواعي للصناع أن يرقوا الأساليب التي كانوا يأخذونها تقليداً عن أجدادهم شفاهاً فجددوها وتفننوا فيها فارتقت مع عدة أشكال قديمة بعضها من أصل بيزنطي وهي وارثة اليونان ورومية والآخر ساساني من أخلاف الدولة الأخمانية ولا سيما (في الأمور الصناعية) أو آشوري أو بابلي. ارتقت عدة فروع من الصنائع الإسلامية المنوعة الأساليب وهي ليست من أصل بيزنطي ولا فارسي فيفضل بعضهم التزيين المهندس أو النقوش التي تجعل على هيئة النباتات والأوراق وهو النمط الوحيد الذي بقي في الحقيقة حيث تأصل مذهب أهل السنة. ويمزج بعضهم فيه صور حيوانات ذات روح وهذه ينبغي نسبتها في أكثر الأحوال إلى تأثير فارس. ومن درس الصنائع القابلة للتشكل والتحول كالهندسة والصنائع اليدوية تتمثل لعينيه القرون الوسطى في الشرق بما أتى به من تمدنه الخاص وما هو إلا مثال المجتمع الذي أوجده القرآن في صورة ظاهرة مؤثرة. فإذا أضيفت إلى ذلك أقوال المؤرخين والجغرافيين لا تلبث أن تطلع على هذا النظام الاجتماعي الذي يختلف من عدة وجوه عن نظامنا وكان ثقلاً على أوروبا كما كان صلة بين العصور القديمة والعصور الحالية.

المسلمون والذميون والمعاهدون

الإحساس دليل الحياة

التضامن رائد العمران

يا بني أمي! ويا بني عمي!

تدبروا رعاكم الله فيما يروونه عن أعمالكم. وتبصروا فيما يصورونه عن سمائلكم وتفكروا فيما بين أيديكم ثم خبروني ماذا تجدون؟

تجدون الشعور القومي قد تجسم معناه حتى كادت اليد تتقراه والعين تراه والإحساس لعمري دليل على الحياة.

ثم تنبهوا إلى أنفسكم وانظروا كيف كنا إلى عهد قريب متنافرين متفككين لا نتمسك بحبل من من جهة الدين أو من جهة الدين حتى قال فينا فيلسوف المشرق: أننا اتفقنا على أن لا نتفق.

فاليوم أحمد الله إليكم يا بني مصر فقد أراد بكم الخير إذ وفقكم إلى سبل الاتفاق.

اليوم بدأنا نطرح تلك الأهواء التي جعلتنا شعا متفرقة. أستغفر الله! بل جعلت كل فرد منا مستقلا بنفسه منفصلا عن سائر بني جنسه.

اليوم بدأنا نخالف ما ألفناه من تلك الاختلافات التي علمتنا أفانين العداوات وعيث بكيان الأمة.

اليوم بدأ الأفراد يتضامنون بعضهم إلى بعض فتألفت منهم أفواج وجماعات بحسب المسار والأعمال والغايات

اليوم بدأت هذه الجماعات تتجاذب وترتبط بما فيه توثيق عرى الجامعة القومية وإظهار الأمة في مظهرها الصحيح.

اليوم أخذت تلك الجماعات في وضع الحجر الأول من هذا البنيان. فلأن اجتماعنا الآن دليل على أننا قد أدركنا أن التضامن رائد العمران.

أيها أمة تولد فيها الإحساس وسعى أفرادها إلى التضامن فيسرها بخير قريب وفلاح عاجل.

ولكن هنالك شرط لا مندوحة عنه. وهو أن يعهد أهل الرأي فيها وأولو العزم منها هذا المظهر الجديد حتى لا يتغلب السوك فتقتل النبت الصالح الذي يأتي بالثمر الشهي النافع.

ذلك واجب مقدس يحتم علينا جميعاً أن نقوم به لخيرنا جميعاً. فكل فرد منا هو في الحقيقة خادم للمجموع كما أن المجموع يتكفل بخدمة كل فرد على السواء.

دعاني ولو الفضل الذين يألف منهم هذه الجمعية جمعية الرابطة المسيحية لأقف خطيباً بينكم وبركوا لي اختيار الموضوع كما أشتهي وأريد. فلم أر أفضل من السؤال بين قومي وهم بنو أمي وبنو عمي داعياً إلى انضمام العنصرين اللذين يتألف منهما كيان الأمة المصرية واجباً أن يقوم غيري من الخطباء المفوهين فينسجون على هذا المنوال حتى نتوصل لتقويض دعائم التفريق التي جعلت مضغة في الأفواه وصيرتنا عبرة للناظرين.

لا ينبغي لي أن أقول أن المقام ضيق وأن المركز حرج لأني وجدت مجال القول ذا سعة ولكن هذه السعة كانت سبباً في حيرتي فصرت أتردد وأردد المثل السائر الذي ضربه الفرنساويون وهو: إنما الحيرة في الاختيار.

بيد أني بعد إنعام النظر رأيت أن أجعل خطابي على شكل محاضرة في صور مذاكية أجاذبكم فيها الحديث بذكر نوادر وأخبار حفظتها التاريخ. وليس لي من أمل سوى أن نتوصل لجعل الأخلاف يرددون عنا سنا سبيها بما سأذكره من مآثر الأسلاف فنكون لنا لسان صدق في الآخرين إذ يستركون مع أرواحنا بسلام واغتباط في تحية هذا اليوم الذي هو باكورة الارتباط بين المسلمين والأقباط.

المسلم والقبطي: وإذا سئلتم قلت لكم القبطي والمسلم. فالأولون الآخرون والآخرون الأولون.

ليس لهما إلا أم واحدة هي مصر. وليس لهما إلا أب واحد هو النيل. فيهما صنوان بل شقيقان قد فرق بينهما الزمان حيناً فسدت الأخلاق وتنكرت المعارف في هذه البلاد فتحكم فيهما الأجنبي والطاريء والدخيل سواء كانوا من هذا الدين أو من ذلك الدين.

بل تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: أن لا نقول بغير الوطن وأن لا نفزع لغير الجامعة القومية. هذا تاريخنا وتاريخكم يشهد لأجدادنا وأجدادكم ويشهد علينا وعليكم. فما بالنا لا نرجع لسنة الأسلاف وقد كان فيها مجدنا ومجدكم؟.

سيقولون أن المسلمين اضطهدوا الأقباط. كبرت كلمة تخرج من أفواههم فكلها أغلاط في أغلاط. هلموا يا بني أمي ويا بني عمي إلى قاضي التحقيق أو على قاضي الإحالة لأمر يحفظ هذه القضية لأنها لم تتوفر فيها أقل دلالة بل لأنها مبنية على الضلالة لا محالة

من هم المضطهدون ومن هم المضطهدون؟

أولئك نفر قليل من الحكام الغرباء الذين لم يرعوا إلاً ولا ذمة لا في المسلمين ولا في أهل الذمة. والمضطهدون (بفتح الهاء) هم المسلمون والأقباط على السواء. اللهم إلا أن يقال على سبيل البسط أن الاضطهاد والضغط كان أشد وقعا على رهط الأقباط: لأن اسمهم جاء على حرف الطاء.

كان الحاكم الظالم إذا تولى مصر (والظالم لا دين له) يسرف الأموال ويستعبد الرجال لا يفرق بين فريق وفريق ولكن أثره لا يظهر ظهورا واضحا في المسلمين لأنهم أكثر مالا وأعز نفرا بخلاف الأقباط فإن أقل حيف يقع عليهم يكون أثره أوسع وأفظع لقلة عددهم. فلو كان لي تسعون نعجة وكان لأخي عشرة ثم وقع وباء أهلك نصفي ما أهلك وخمس ما لأخي لكانت مصيبتي أجل وأكبر وإن كانت لا تذكر ولا تظهر في جنب ما حاق بأخي الأصغر إذ يبقى لي خمسون ويبقى له عشر. ولو كان لي ثوب ذرعه عشرة أشبار في عشرة أشبار وله ثوب قدره شبر في شبر ثم وقعت نقطة زيت على كل من الثوبين لكان وقعها على ثوبه أعظم أثرا وإن كنا قد تساوينا ضررا.

تلك هي حقيقة الحال وإن كان هنالك بعض شذوذ نادرة فالنادر لا حكم له. فما بالنا لا نتأسى الأضغان إن كان هنالك أضغان؟ بل ينبغي لنا أن لا نكون أقل في العقل وأحط في الإدراك من ذلك السرطي وذلك الحوذي إذ أخذ الأول غرة الثاني ليحرر فيه محضر مخالفة فأخذ الثاني غرة الأول ليسكوه إلى العظيم الذي استوقفه. فقال له: إمسح وأنا أمسح

إلكم الآن أحاديث الرسول وما ورد في شريعة المسلمين مسقوعه بشف من أخبار الماضين عليها نكون عبرة وتذكرة وعسى أن يكون من ورائها ما نرجوه من الرجوع إلى توثيق علائق الارتباط بين المسلمين والأقباط

ورد في الآثار النابه الصحيحه أنه قال:

(1) ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط فاستوصوا بأهلها فإن لهم ذمة ورحما.

(2) إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما

(3) إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإن لكم منهم صهرا وذمة.

(4) استوصوا بالقبط خيرا فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم.

(5) اتقوا الله في القبط لا تأكلوهم أهل الخضر.

(6) أن الرسول مرض فأغمي عليه ثم أفاق فقال استوصوا بالأدم الجعد ثم غمي عليه الثانيه ثم أفاق فقال مثل ذلك ثم أغمي عليه الثالثه فقال مثل ذلك. فقال القوم لو سألناه من الأدم الجعد؟ فأفاق فقال: قبط مصر

(7) قبط مصر أكرم الأعاجم كلها وأسمحهم يدا وأفضلهم عنصرا وأقربهم رحما بالعرب عامه وبقريش خاصه ومن أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى شبيه في الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين يخضر زرعها وتنوّر غارها.

(8) أنه قال عند وفاته اتقوا الله في قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعوانا في سبيل الله.

(9) وفي الحديث عن سفي بن عبد الأصبحي مصر بلد معافاة من الفتن لا يريد أحد هلكهم إلا أهلكه الله.

(10) وفي الحديث أيضا: أهل مصر الجند الضعيف ما كادهم أحد إلا كفاهم الله مؤونته

تلك هي أحاديث الرسول. وهل بعد هذه الوصايا المكرره من حفاوة ظاهره. اللهم إنا آله يجعل المسلمين أنفسهم يغبطون عليها أخوانهم الأقباط

ولننظر الآن على ما جاء في السرخ وقرره الفقهاء:

وجه أهل المصطلح سؤالا إلى الإمام مالك فقالوا إنا نخرج في بلاد الروم (ـ آسا الصغرى) فنلقى العلج منهم مقبلا إلينا فإذا أخذناه قال: إنما جئت أطلب الأمان فهل نصدقه؟ فقال مالك: هذه أمور مشكلة أرى أن يرد إلى مأمنه.

وبناء على ذلك أفتى علماء الإسلام بأن الرومي إذا حلّ بساحل المسلمين تاجرا ونزل قبل أن يعطى الأمان وقال: ظننت أنكم لا تعرضون لمن جاءكم بتجارة حتى يبع تجارته وينصرف عنكم: فقالوا بأن يقبل منه قوله أو يرد إلى مأمنه. (مدونه جزء3 صفحه10)

فهل بعد هذا بيان في مبالغة المسلمين بالحرص على التجارة وحمايتها أصحابها ولو اتخذوها حيله بل أقلا نقال بأنهم السابقون إلى فتح مساسه الباب المفتوح قبل أن يفتحه أهل أوروبا في هذه الأيام.

إنهم توسعوا في مساسه هذا الباب المفتوح فقد ورد عن الإمام مالك أيضا (في الجزء المذكور صفحه 11) في حق الروم يمرلون بساحل المسلمين بأمان معهم التجارات فيبعون ويشترون ثم يركبون البحر راجعين إلى بلادهم فإذا أمعنوا في البحر رميهم الريح إلى بعض بلدان المسلمين غير البلاد التي كانوا أخذوا فيها الأمان. قال مالك: أرى لهم الأمان أبدا ما داموا في بحرهم حتى يرجعوا إلى بلادهم ولا أرى أن يهاجموا.

وأفتى بأن الذمي إذا أسره الحاربون المسلمين ثم غنمه المسلمون فلا يكون فيئا بل يرجع له حرمه كما كانت ويردّ إلى ذمته وأهله وماله. وقد قرر أيضا بأن أموال أهل الذمه وأموال المسلمين سواء غنم الحاربون شيئا من أموال الفريقين ثم تغلب المسلمون وغنموا هذه الأموال في جملة مغانمهم وأدركها صاحبها قبل القسمه سواء كان مسلما أو ذميا كان هذا أولى بها بغير شيء وإذا أدركها بعد القسمه أخذها بالثمن وإن عرف أهل الإسلام أنها أموال أهل الذمه لم يقسموها في الغنمه ويردونها إليهم إذا عرفوها فيستهم في ذلك مثل المسلمين سواءً بسواء. (راجع المدونه في الجزء المذكور صفحة 13 و14).

ورأيت في كتاب الذخائر السرقسطية في ألفاظ الحنفية المطبوع على هامش كتاب البيان صفحة 126 : إذا مات أم الولد وهو رضيع فأعطاه أبوه لليهودية ترضعه مع ابن لها وغاب أبوه ومات اليهودية واشتبه الحال أيهما ولد المسلم ولم يحصل التمييز بوجه وبقيا على اليهودية فابن المسلم مسلم تبعا وقد ارتد ولا يلزم أحدهما بالإسلام للاشتباه فأحدهما مرتد ولا يلزم بالإسلام لعدم تعينه. وفيه أيضا أنه إذا كان للعدو حصن وفيه واحد من أهل الذمة لا يعرف وقد افتتحه المسلمون عنوة ولم يؤمنوا من فيه لا يحل لهم قتلهم بسبب هذا الذمي الواحد الذي لا يمكن تعيينه وذلك لقيام المانع بطريقه يقينية وهو وجود رجل غير معين له ما للمسلمين وعليه ما عليهم وله في عنقهم عهد وذمة.

ولا يلزم اليهودي بالحضور إلى مجلس القضاء في يوم السبت إلا اضطرارا بحيث لا يكون المقصود إيقاع الضرر به تعمدا بهذه الوسيلة ومن المقرر أيضا أنه إذا دعت الحال لغلبة السنن فيكون ذلك في المحل المعظم وهو المسجد الجامع للمسلم ولا يقوم مقامه مطلق مسجد ويحلف اليهودي في بيعته والنصراني في كنيسته والمجوسي في بيت النار وقال الشيخ سراج الدين عمر الحنفي قاري الهداية إذا بنى الذمي دارا عالية بين دور المسلمين وجعل لها طاقات وشبابيك تشرف على جيرانه هل يمكن من ذلك. فأجاب بقوله: أهل الذمة في المعاملات كالمسلمين وما جاز للمسلمين جاز لهم وإنما يمنع الذمي من تعلية داره إذا حصل لجاره ضرر من منع ضوء أو هواء هذا هو ظاهر المذهب انتهى. وحكم المسلم كذلك أيضا في حكم الضرر بالجيران.

وحسبي هذه الشواهد الآن لأنني لست بمفتٍ ولا مستشرع كما أنني لا أبغي اغتنام هذه الفرصة لإلقاء درس في الشريعة الإسلامية الصريحة السمحاء فاسمحوا لي إذن بأن أطرق باب التاريخ وفيه غناء وكفاء بل هو الموعظة البالغة والحجة الدامغة.

لا حاجة للإشارة إلى العهود الكريمة والمنح الجليلة التي أتحف بها نبي الإسلام كسرا من النصارى. فأمرها مقرر معلوم وهي أشهر من أن تذكر. قال المؤرخ القبطي الشهير بالمكين ما نصه: ورد في تواريخ النصارى أنه كان مؤمنا لهم رؤوفا بهم. . وقال لعمر أن نفوسهم كنفوسنا وعوائلهم كأموالنا

وأعراضهم كأعراضنا. ذكر هذا الحديث صاحب كتاب المهذب وأسنده (أسنده) إلى مسلم وهو حجة الإمام أبي حنيفة في قتل المسلم بالذمي.

وقد عاده بعض أكابر النصارى فقام له وأكرمه. فقالوا له في ذلك فقال: إذا أسلم كريم قوم فأكرموه وهذا كبير قومه . وقال من ظلم ذميا كنت خصمه يوم القيامة. وقال من آذى ذميا فقد آذاني. ولكني لا أرى أبدا من النسخ إلى العهد العمري الذي جعله عمر بن الخطاب في رقبة المسلمين والكتابيين ما داموا مرتبطين بعروة الوطن التي لا تنفصام لها. فإن ثاني الخلفاء الراشدين هو أول من اسبكت في أيامه مصالح المسلمين وغير المسلمين. فقد روى المقريزي عن علماء الأخبار من النصارى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما فتح مدينة القدس كتب للنصارى أمانا على أنفسهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم وجميع كنائسهم لا تهدم ولا تسكن. وأنه جلس وسط صحن كنيسة القيامة ولما حان وقت الصلاة خرج وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التي على بابها بمفرده ثم جلس وقال للبطرك. لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدي من النصارى وقالوا هنا صلى عمر. وكتب كتابا يتضمن أنه لا يصلي أحد من المسلمين على الدرجة إلا واحدا واحدا. ولا يجتمع المسلمون للصلاة فيها ولا يؤذنوا عليها. وأنه أشار عليه البطرك باتخاذ موضع الصخرة مسجدا وكان فوقها تراب كثير فتناول عمر رضي الله عنه من التراب في ثوبه فبادر المسلمون لرفعه حتى لم يبق منه شيء وعمر المسجد الأقصى أمام الصخرة.

ثم أن عمر رضي الله عنه أتى بيت لحم وصلى في كنيسته عند الحنية التي ولد فيها المسيح. وكتب سجلا بأيدي النصارى. أن لا يصلي في هذا الموضع أحد من المسلمين إلا رجل بعد رجل ولا يجتمعوا فيه للصلاة ولا يؤذنوا عليه.

وكثيرا ما يشير المؤرخون إلى العهود العمرية وقد ألف أبو العباس أحمد بن محمد بن العطار الدنسري المتوفى سنة 715 كتابا سماه العهود العمرية في اليهود والنصارى ولم أظفر بشيء سوى اسمه في كشف الظنون الذي أفادنا صاحبه أيضا هو والسخاوي في البر المسبوك أن المقريزي له

كتاب اسمه سذور العقود وأكمل صاحب الكنيسة اسمه في موضع آخر بأنه عقود في تاريخ اليهود وجلها لم تصلنا لسوء الحظ.

فلما ظهر الإسلام وارتفعت كنيسة كانت مصر في يد الروم روم الدولة الشرقية وكان عددهم فيها ثلثمائة ألف نفس توزعوا وظائف الدولة فيما بينهم وكانت الأمة كلها مهضومة الحقوق ليس لها سوى الاحتراف بالكتابة في الدواوين والتجارة والبيع والشراء والزراعة والفلاحة والخدمة والمهنة هذا فضلا عن خدمة الدين فكان الأساقفة والقساوسة وغيرهم من الأقباط فلما قدم عمرو بجيوش المسلمين قاتلهم الروم حماية لملكهم ودفعا لهم عن بلادهم حتى غلبهم عمرو على أمرهم فطلب القبط من عمرو المصالحة على الجزية فصالحهم عليها وأقرهم على ما بأيديهم من الأراضي وغيرها وصاروا معه عونا للمسلمين على الروم وكتب عمرو لبنيامين بطرك العاقبة أمانا في سنة عشرين من الهجرة فسره ذلك وقدم على عمرو وجلس على كرسي بطركيته.

ولما توجه عمرو لفتح الاسكندرية خرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا للمسلمين الطرق وأقاموا لهم الجسور (القناطر) والأسواق وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم حتى تم فتح الاسكندرية ورجع عمرو فاصدا الفسطاط فجاز بناحية الطرانة فاستقبله بها سبعون ألف راهب خرجوا من وادي النطرون وبيد كل واحد عكاز وطلبوا منه الأمان على أنفسهم وأديارهم فكتب لهم بذلك أمانا بقي عندهم وكتب أيضا بجرانة الوجه البحري فتسمت بأيديهم وقد بلغت في إحدى السنين على خمسة آلاف أردب. قال علي باشا مبارك أنها لا تزيد الآن عن مائة أردب. وقال المقريزي أن دير أبي فمار الموجود بوادي النطرون فيه الكتاب الذي كتبه عمرو بن العاص لأولئك الرهبان بجرانة نواحي الوجه البحري على ما أخبره من أخبر برؤيته فيه. وقد توجهت إلى تلك الجهة في شهر يوليو سنة 1894 بعناية الأب الجليل المثلث الغبطة كيرلس الخامس بابا الكنيسة المرقسية وبمساعدة المطران النيل يوأنس مطران البحيرة والإسكندرية وزرت هذه الديارات كلها ونقبت فيما بها من الغرائر والزكائب والجوالق الموضوعة فيها الأوراق والكتب والمصاحف أملا في العثور على ذلك الكتاب فلم أظفر به مطلقا والغالب على الظن أنه ضاع أو

يلتقطه أحد سائح الإفرنج فكان مثل الأقباط مثل المسلمين في التفريط بذخائر الأجداد. فأهل مصر كلهم سواء في ذلك. وإلا فأين المعاهدات والمكاتبات الدولية التي تبادلها ملوك مصر مع أمثالهم في أوروبا وغيرها؟ إننا إذا أردنا العثور على شيء من هذا القبيل كنا عالة في أخص خصائصنا عن الإفرنج الذين حافظوا على ما وصلهم منا وقد نسره بعض علمائهم في القرن الماضي. فالتفريط والإفراط سيان فيهما المسلمون والأقباط. فما بالهم لا يتساوون في أحكام علائق الارتباط؟

اتسع بعد ذلك ملك الإسلام وانتشرت أعلامه في سائر الآفاق. فكان الخلفاء والسلاطين حماة المسيحيين يدفعون عنهم الأذى ويحوطونهم بأصناف الرعاية والإكرام ويعاملونهم مثل المسلمين بتمام المساواة بل ربما زادوا في تعظيمهم وتقريبهم بما لا يكاد يصل إليه سواد المسلمين.

هل أنا كم حدث عمرو بن العاص داهية العرب مع يحيى المعروف عند النصارى بفرانطقوس أي النحوي؟ دخل هذا الفيلسوف على الأمير وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم يكن للعرب بها أنسة ما هالته فطن به. قال المؤرخ النصراني الفاضل غريغوريوس أبو الفرج المعروف بابن العبري في كتاب مختصر الدول كان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه.

وعندي أن يحيى كان يحسن التكلم بالعربية دون عمرو فقد أثبت لنا التاريخ جهله باللغة الرومية وذلك في حادثة الأرطبون التي وقعت له بالشام وفي حديث أسره بالإسكندرية وسنذكره فيما بعد فإنه لم يفطن للمكيدة التي دبرها الروم لاغتياله لولا معرفة صاحبه في الأول ومولاه في الثاني بتلك اللغة وحسن تلطفهما في إنقاذه من التهلكة.

هل أنا كم حدث الحجاج بن يوسف ذلك الداهية الثاني فقد كان ملازما لسادوف وسادون النصرانيين وطبا مكرما. دخل الثاني عليه يوما فقال له الحجاج. أي شيء دواء أكل الطين. فقال: عزيمة منك أيها الأمير. فرمى الحجاج بالطين ولم يعد إلى أكله بعدها.

وهل أنا كم حدث الدواوين في صدر الإسلام؟ فقد كان القيمون عليها كلها من النصارى وكانوا يكتبون الدفاتر باللغة الرومية حتى جاء عبد الملك بن مروان فألزمهم باستخدام اللغة العربية.

وهل سمعتم في دولة من الدول أو هل جاءكم نبأ عن ملك من الملل بمثل ما حصل للأخطل؟ فإن هذا الشاعر النصراني كان في خصام مستديم مع شعراء المسلمين بل خاض في حق الهاشميين وهجم عليهم بالمثالب والمطاعين وهو على نفسه وماله آمن.

هذا بعض ما أمكنني استحضاره الآن فيما يتعلق بالدولة الأموية.

أما الدولة العباسية فحدث عن البحر ولا حرج فقد كان لها في هذا الباب ما هو أعجب وأغرب.

انظروا ماذا جرى للخليفة المنصور وبخله مشهور حتى سماه التاريخ بأبي الدوانيق وبالدوانيقي أكرم طبيب جورجيس بن جبريل بن بختيشوع وأمر له بخلعة جميلة وأنزله في أجمل موضع من دوره وأكرمه كما يكرم أخص أهله. فلما مرض الرجل خرج الخليفة بنفسه ماشيا إليه ويعرف خبره. ولشدة شغفه به ونفاسته في حبه قال له: يا حكيم اتق الله وأسلم وأنا أضمن لك الجنة. فقال: قد رضيت حيث آباؤي في الجنة أو في النار. فضحك المنصور وأمر له بعشرة آلاف دينار.

والمنصور كان حازم الرأي قد عركته الدهور وخالفت الأيام سطوته وروى العلم وعرف الحلال والحرام لا يدخله فتور عند حادثة ولا تعرض له ونية عند مخوفة يجود بالأموال حتى يقال هو أسمح الناس ويمنع في الأوقات حتى يقال هو أبخل الناس ويسوس سياسة الملوك وثب وثوب الأسد العادي لا يبالي أن يحرس ملكه بهلاك وخلف من الأموال ما لم يجمع مثله الخليفة قبله ولا بعده وهو سبعمائة ألف ألف وسبعون ألف ألف فرق المهدي جميع ذلك حين أفضى الأمر إليه.

وسبب ذلك ما حدث بمصر في القاهرة سنة 385 فإن الطبيب أبا الفتح منصور بن مفسر القبطي كان له منزلة سامية من أصحاب القصر واتفق أنه اعتل وتأخر عن الركوب فلما تماثل كتب إليه العزيز بخطه: بسم الله الرحمن الرحيم. طبيبنا سلمه الله سلام الله الطيب وأتم النعمة عليه. وصلت إلينا البشارة بما وهبه الله من عافيه الطبيب وبرئه. والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقناه نحن من الصحة في جسمنا. أقالك الله العثرة وأعادك إلى أفضل ما عودك من صحة الجسم وطيب النفس وخفض العيش بحوله وقوته. وقد دخل ابن مفسر في خدمة الحاكم بأمر الله وكان مكينا في دولته وبلغ معه أعلى المنازل وأسناها وكان له من الصلات الكثيرة والعطايا العظيمة فلما مرض عاده

الحاكم بنفسه ولما مات لم يقبض على تركته كما جرت العادة على كبار المسلمين والنصارى بل أبقاها كلها لورثته وأطلق لهم مالا وافرا من خزينته.

وسبب ذلك بل أبلغ منه ما وقع للمعتصم العباسي مع طبيبه سلموبه فإنه مرض فعاده الخليفة وبكى هذا الهمام الجبار عنده وهو الرجل الذي لا يقاس به الرجال قوة بدن وشدة بأس وشجاعة قلب وكرم أخلاق وقال له: أسر عليّ بعدك بمن يصلحني فقال عليك بهذا الفضولي بوحنا بن ماسويه وإذا وصف لك شيئا فخذ أقله أخلاطا. فلما مات سلموبه قال المعتصم: سألحق به لأنه كان يمسك حياتي ويدبر جسمي. وامتنع عن الأكل في ذلك اليوم وأمر بإحضار جنازته إلى الدار وأن يصلى عليها بالبيع والبخور على رأي النصارى ففعل ذلك وهوي راه وهو خليفة لامسلمين. فهل سمع بمثل ذلك عند غير أهل الإسلام. نعم سمعنا في هذه الأيام بأن ملك الإنكليز وهو مسيحي بروتستانتي قد انتقل إلى الكنيسة الكاثوليكية في لوندره لحضور الصلاة عن نفس ملك البرتغال فقامت عليه القيامة من جمهور الإنكليز وسوادهم الأعظم وكادوا يجاهرون بخلع طاعته لأنه خالف الدستور.

نرجع بالحديث إلى المنصور العباسي فقد كان في خدمته نوبخت المنجم الفارسي النصراني فطلب ما يسميه الآن الإحالة على المعاش فسأله الخليفة عمن يخلفه فأشار بولده فاستقدمه فاستحسنه فقال اسمي خرشاذماه طلشاذاه مابازار خسروانشاه فقال المنصور كل ما ذكرت فهو اسمك؟ قال نعم. فتبسم الخليفة وقال اختر مني إحدى خلتين إما أن أقصر بك من كل ما ذكرت على طلشاذ وإما أن تجعل لك كنية تقوم مقام الاسم وهي أبو سهل. فقال رضيت بالكنية. فبقيت كنيته وبطل اسمه.

ومن ذلك العهد إلى قرب دخول الدولة العثمانية في مصر كان النصارى واليهود والصابئة يكنون بأبي علي وأبي الحسن وأبي الفضل وأبي النجم وأبي الخير وأبي الفرج وأبي الكرم وأبي البقا وأبي يسر وأبي الحسن وأبي الفضل وأبي العلاء وأبي المكارم وأبي النصر وأبي الفتح وأبي المنا وأبي الحجاج وأبي العساكر وأبي المجد وأبي المعالي وأبي البركات وأبي الفخر وأبي الرجاء ويتلقبون بموفق الدين وجمال الكفاة وصنيعة الخلافة وعماد الرؤساء وأمين الملك وصنيعة الملك وسيف الدولة وشمسي الرياسة

فأمره باستعمال البنداذسقون فقال: قد سربت منه جرة. قال: استعمل المروسا فقال: قد فعلت وأكثرت فغضب يوحنا وقال له: يا أبانا يا قسس إن أردت أن تبرأ فادخل في دين الإسلام فإنه يصلح المعدة.

وفي أيام المأمون وهي الأيام التي يفتخر بها الإسلام كان الحكماء والعلماء وكتبهم مقربون لديه ولا يفرق بين أحد وآخر بسبب دين أو مذهب. والإفاضة في هذا الموضوع تطول ولكنني أقصر على أمر واحد يدل على عداوة أهل الفن. فقد كان في زمنه من الأطباء سهل بن سابور فارسي نصراني في لسانه لكنه خوزية وكان إذا اجتمع مع يوحنا بن ماسويه وجورجيوس بن بختيشوع وعيسى بن الحكم وزكريا الطيفوري قصر عنهم في العبارة ولم يقصر في العلاج. ولكنه كان يأخذ بثأره بطريق الدعابات فمن ذلك أنه عارض وأحضر شهودا يشهدهم على وصية وكتب كتابا أثبت فيه أولاده وجعل أولهم جورجيس بن بختيشوع والثاني يوحنا بن ماسويه. وأرجو إعفائي من السبب الذي انتحله لذلك فعرض لجورجيس زكام من الغيظ وكان كثير الالتفات فقال سهل: صري وهنك المسيه أخرؤا في أذنه آله خرسي أراد بالعجمية التي فيه: صرع وحق المسيح اقرؤا في أذنه آية الكرسي. ومن دعاباته أنه خرج يوم السعانين يريد المواضع التي يخرج إليها النصارى فرأى يوحنا بن ماسويه في هيئة أحسن من هيئته فحسده على ذلك فصار إلى صاحب مسلحة الناحية أي القرية فقال وقال له إن ابني يعقني وإن أنت ضربته عشرين درة موجعة أعطيتك عشرين دينارا ثم أخرجها فدفعها إلى من وثق به صاحب المسلحة. ثم اعتزل ناحية إلى أن بلغ يوحنا الموضع الذي هو فيه فقدمه إلى صاحب المسلحة وقال: هذا ابني يعقني وستخف بي فجحد أن يكون ابنه وقال بهذي هذا. قال سهل انظر يا سيدي فغضب صاحب المسلحة ورمى يوحنا عن دابته وضربه عشرين مقرعة ضربا موجعا مبرحا.

تلك أمور مما يتعلق بالأفراد وسنعود إلى شيء منها فيما بعد ولكن لا بأس من توجيه النظر إلى المجموع ففي أيام الرشيد خطب وزيره الفضل بن يحيى البرمكي بنت خاقان الخزر فأرسلها في تجمل عظيم ولكن منيها وافيها في مدينة برذعة فأوهم أعداء الخلافة أياها أن ذلك كان بدسيسة عليه

فأمره باستعمال البنداذستون فقال: قد سربت منه جرة. قال: استعمل المروسا فقال: قد فعلت وأكثرت فغضب بوحنا وقال له: يا أبانا يا قسس إن أردت أن تبرأ فادخل في دين الإسلام فإنه يصلح المعدة.

وفي أيام المأمون وهي الأيام البيض التي يفخر بها الإسلام كان الحكماء والعلماء وكلهم مقربون لديه ولا يفرق بين أحد وآخر بسبب دين أو مذهب. والإفاضة في هذا الموضوع تطول ولكنني أقصر على أمر واحد يدل على عداوة أهل الفن. فقد كان في زمنه من الأطباء سهل بن سابور فارسي نصراني في لسانه لكنه خوزيه وكان إذا اجتمع مع بوحنا بن ماسويه وجورجيوس بن بختيشوع وعيسى بن الحكم وزكريا الطيفوري قصر عنهم في العبارة ولم يقصر في العلاج. ولكنه كان يأخذ باره بطريق الدعابات فمن ذلك أنه عارض وأحضر شهودا يشهدهم على وصيه وكتب كتابا أثبت فيه أولاده وجعل أولهم جيورجيس بن بختيشوع والثاني بوحنا بن ماسويه. وأرجو إعفائي من السبب الذي انتحله لذلك فعرض لجيورجيس زمع من الغيظ وكان كثير الالتفات فقال سهل: صري وهك المسه أخروا في أذنه آله خرسي أراد بالعجمة التي فيه: صرع وحق المسيح اقرؤا في أذنه آله الكرسي. ومن دعاباته أنه خرج يوم السعانين يريد المواضع التي تخرج إليها النصارى فرأى بوحنا بن ماسويه في هيئة أحسن من هيئته فحسده على ذلك فصار إلى صاحب مسلحة الناحية أي القرية قول وقال له إن ابني يعقني وإن أنت ضربته عشرين درة موجعة أعطيتك عشرين دينارا ثم أخرجها فدفعها إلى من وثق به صاحب المسلحة. ثم اعتزل ناحية إلى أن بلغ بوحنا الموضع الذي هو فيه فقدمه إلى صاحب المسلحة وقال: هذا ابني يعقني وستخف بي فتجحد أن يكون ابنه وقال بهذي هذا. قال سهل انظر يا سيدي فغضب صاحب المسلحة ورمى بوحنا من دابته وضربه عشرين مقرعة ضربا موجعا مبرحا.

تلك أمور مما يتعلق بالأفراد وسنعود إلى شيء منها فيما بعد ولكن لا بأس من توجيه النظر إلى المجموع ففي أيام الرشيد خطب وزيره الفضل بن يحيى البرمكي بنت خاقان الخزر فأرسلها في جمل عظيم ولكن منيتها وافتها في مدينة برذعة فأهم أعداء الخلافة أباها أن ذلك كان بدسيسة منه

للتنكيل به فخرج في سنه 183 من مدينه باب الأبواب في جموس كثيفه من قومه فأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمه وسبوا أكثر من مائه ألف نفسي وانتهكوا أمرا عظيما لم يسمع بمثله في الخافقين.

والتاريخ يحدثنا أن بابكا الخرميّ خرج على خلفاء الإسلام وأبلى في المسلمين وعمل بهم وكاد يهدم خلافتهم ومحي أثرهم من الوجود. وكان أصحابه لا يدعون رجلاً ولا امرأه ولا صبيا ولا طفلا مسلما أو ذميا غلا قطعوه وقتلوه وأحصي عدد القتلى بأيديهم فكان 250500 إنسان. فوجه المعتصم بالله عنايته لاستئصال شأفته وقطع جرثومته حتى ضاق في وجهه المخانق وأخذ عليه المنافذ وسد دونه المسالك. فخرج الخارجي إلى بلاد الروم هاربا في زي التجار ومعه أهله فعرفه سهل بن سنباط الأرمني البطريق فأسره فافتدى نفسه منه بمال عظيم فلم يقبل وبعثه إلى قائد جيوش المسلمين بعدما ما ركب الأرمني من أمه وأخته وامرأته الفاجسة بين يديه وكذا كان يفعل المتغلبون بالناس إذا أسرهم مع حريمهم فكان أهل الذمه يجدون منه بقدر وجد أهل الإسلام. إذ كانوا سواسيه عنده يركب فيهم المحارم والآثام. ولولا إخلاص الذمي ما تخلص من هذا الفاسق الكافر لأهل الإسلام.

وكان المسلمون إذا حاربوا أعداءهم في الملك والسياسة وهم الروم لا يسيئون بمعاونة أهل الذمه فكان هؤلاء يصيبهم ما نال بالمسلمين من ظفر أو نكاية. ولطالما أخذ الروم من أهل الذمه أسارى وعاملوهم بنفس القسوه التي يعامل بها أسارى المسلمين ولكن إذا وقع الفداء بين المحاربين كان أول ما يشرطه المسلمون استخلاص النصارى الذميين أيضا.

فقد روى التاريخ أنه في سنه 231 هجريه في أيام الواثق ابن المعتصم كان الفداء بين المسلمين والروم على يد خاقان خادم الرسد. فاجتمع المسلمون على نهر اللامس على مسيرة يوم من طرسوس وأمر الواثق بأن يكون فداء أهل الذمة مطلقا وبلا قيد ولا شرط وأما فداء المسلمين فقد أمر خلفيتهم بامتحانهم قبل فكهم من الأسر فمن قال بخلق القرآن وأن الله لا يرى في الآخرة فودي به بأسير رومي وأعطي دينارا. ومن لم يقل ذلك ترك في أيدي الروم. فسمعوا واعجبوا. فلما كان يوم عاشوراء أتت الروم ومن معهم من الأسارى فكان المسلمون هم البادئون بهذا الخير فطلقوا الأسير فطلق الروم أسيرا فالتقيا في وسط الجسر فإذا وصل الأسير إلى المسلمين صاحوا: الله أكبر

وإذا وصل الرومي إلى قومه صاحوا كبر بالسوس حتى فرغوا فكان عدة أسارى المسلمين أربعة آلاف وأربعمائة وستين نفسا والصبيان عامائة وأهل ذمة المسلمين مائة نفس.

وفي سنة 238 هجرية هجم الروم على دمياط في تسعمائة مركب فنهبوها وأحرقوا دورها وجامعها وسبوا من النساء المسلمات والذميات نحو ستمائة امرأة فلم يسف للذميات مقولهن بالأقانيم الثلاثة عند أولئك الذين قالوا أنا نصارى. بل كن والمسلمات سواء في البؤس والشقاء.

وفي سنة 283 سارت الصقالبة إلى الروم فحاصروا القسطنطينية وقتلوا من أهلها خلقا كثيرا وخربوا البلاد. فلما لم يجد ملك الروم منهم خلاصا جمع من عنده من أسارى المسلمين وأعطاهم السلاح وسألهم معونته على الصقالبة ففعلوا وكشفوهم وأزاحوهم عن القسطنطينية وانظروا مكافأته لهم على هذه النجدة العربية والشهامة الإسلامية. لما رأى ملك الروم ذلك خاف المسلمين على نفسه فأخذ سلاحهم وفرقهم في البلدان حذرا من جانبهم عليه فدعا ذلك الخليفة العباسي وهو المعتضد بن الموفق إلى السعي في الفداء فتم الأمر وبلغ جملة من فودي به من المسلمين ممن الرجال والنساء والصبيان ألفين وخمسمائة وأربعة أنفس.

وهل يصح لنا أن نقابل ملك النخوة السرفة لما فعله الإفرنج المقسون (لا الأسارى) بالقسطنطينية؟ ففي سنة 600 هجرية حاصرها ملك الإفرنج فروى ابن العبري أن الإفرنج المقسون بها وكان عددهم ثلاثين ألفا فتواضعوا مع الإفرنج المحاصرين لها ووثبوا في البلد وألقوا فيه النار فاحترق نحو ربع البلد فاشتغل الروم بذلك ففتح الإفرنج الأبواب ودخلوها ووضعوا السيف ثلاثة أيام وقتلوا حتى الأساقفة والرهبان والقسيسين الذين خرجوا إليهم من كنيسة أيا صوفيا العظمى وبأيديهم الأناجيل والصلبان يتوسلون بها ليكفوا عنهم فلم ينفعوا إليهم وقتلوهم أجمعين ونهبوا الكنيسة. فأين فعلهم من فعل عمرو بن العاص مع رهبان النطرون.

هذا وقد كانت الفتن توالت ببغداد فخربتها فسرع عضد الدولة سنة 369 في عمارها فعمر المساجد والأسواق وأدر الأموال على الأئمة والعلماء والقراء والغرباء والضعفاء الذين يأوون إلى المساجد وجدد ما دثر من الآثار وأعاد حفرها ونسوبها. ولكن هل وقف ذلك الأمير المسلم عند

هذا الحد في عاصمه عواصم الإسلام؟ كلا فقد ذكر ابن الأثير في الكامل أنه أذن لوزيره نصر بن هارون (وكان نصرانيا) في عمارة البيع والأديرة وإطلاق الأموال لفقرائهم. فكان المسلمون والنصارى في هذا الرخاء سواء. بل أن المجوس أنفسهم وهم لا ذمة لهم ولا كتاب نالوا من عدل الرجل وإنصافه ما خلدته الدفاتر مع الثناء الوافر. فقد وقعت في تلك السنة فتنة في سراز بين عامة المسلمين وعامة المجوس فنهب الأولون دور مواطنيهم وضربوا وقتلوا جماعة منهم. فسير عضد الدوله من جمع له كل من له أثر في ذلك وضربهم وبالغ في تأديبهم وزجرهم لأنهم لم يراعوا حرمة الوطن والجوار.

ومما يدل على ارتباط المسلمين بأهل الذمة عند حلول الشدائد بهم جمعا ما وقع سنة 640 في منطقة بأسا الصغرى عند هجوم التتار وتوالي نكباتهم بالأرض وبأهل الأرض. فإن المسلمين والنصارى اجتمعوا في البقعة الكبرى وتحالفوا أن لا يخون بعضهم بعضا ولا يخالفوا المطران في جمع ما يقدم إليهم من مداراة التتار والقيام بحفظ المدينة والذبونة على أسوارها وكف أهل الشر عن الفساد

وفي حدود سنة 656 هجرية أزاح التتار أميرا مسلما عن منطقة فلما رحلوا عنها رجع هذا الأمير إليها واستولى عليها بغدر. فأغلق أهلها الأبواب في وجهه ولم يمكنوه من الدخول خوفا من الغدر. فسدد عليها الحصار حتى ضجر الناس وضاقت بهم الحيلة. ففتح له العوام أحد البواب فدخل المدينة عنوة. وكان أول همه أنه لم يربض حتى يجيء الصباح فأصعد بالليل على المنابر جماعة ينادون ويقولون: إن الأمير قد أمن الرعية النصارى منهم والمسلمين فليخرج كل واحد إلى عمله ودكانه وليشتغل ببيعه وشرائه فإنما كلامه مع الحكام.

ولنرجع إلى ذكر الأفراد لنشير إلى مقدار عناية ملوك الإسلام بفضلاء النصارى واحتفالهم منهم بما لا يمكن أن يتصوره عقلنا في هذه الأيام. فقد روى التاريخ أن يوحنا بن ماسويه الذي أشرنا إليه فيما سبق كان مع الخليفة العباسي الواثق في دكان (أي دكة مبنية للجلوس عليها) وكان مع الواثق قضبة فيها سمك وقد ألقاها في دجلة ليصيد بها السمك فحرم الصيد فالتفت إلى يوحنا وكان على يمينه وقال: قم يا منحوس عن يميني. فقال يوحنا: يا أمير المؤمنين لا

يكلم بمحال. يوحنا أبوه ماسويه الخوزي. وأمه رساله الصقلبيه المباعه بسماعائه درهم وأقبلت به السعادة إلى أن صار ندمم الخلفاء وسميرهم وعشيرهم حتى عمر به الدنيا فنال منها ما لم يبلغه أمله. فمن أعظم المحال أن يكون هذا مسؤوما. ولكن إن أحب الأمر أن أخبره بالمشؤوم من هو أخبره فقال من هو؟ فقال: من ولده أربعه خلفاء ثم ساق الله إليه الخلافه. فترك الخلافه وقصورها وقعد في دكان مقدار عشرين ذراعا في مثلها في وسط دجله لا يأمن عصف الريح عليه فيغرقه. ثم نسبه بأفقر قوم في الدنيا وسرهم وهم صادو السمك فماذا فعل الخليفه؟ نجع فيه الكلام ولكن تساغل مده ثم قال ليوحنا وهو على ذلك الدكان: يا يوحنا ألا أعجبك من خلق؟ قال: وما هي؟ قال: إن الصياد ليطلب الصيد مقدار ساعه فيصيد من السمك ما يساوي دينارا وما أشبه ذلك وأنا أقعد منذ غدوه إلى الليل فلا أصيد ما يساوي درهما فقال يوحنا: يا أمير المؤمنين وضع التعجب في غير موضعه. إن الله جعل رزق الصياد من صيد السمك. فرزقه بأيسه لأنه قوته وقوت عياله. ورزق أمين المؤمنين بالخلافه فهو غنيٌ عن أن يرزق بشيء من السمك. فلو كان رزقه من الصيد لوافاه مثل ما يوافي الصياد.

ومثل ذلك ما حدث للمتوكل الذي تولى الخلافه بعد الواثق هذا. فقد جرى على سنه أسلافه في تعظيم أهل الفضل مهما كانت عقيدتهم. كان الطبيب بختيشوع إذا دخل عليه في داره الخاصه جلس بجانبه على السدة: وهي منزله لم يصل إليها وزير من المسلمين. فاتفق يوما أن الخليفه رأى فتقا في ذيل دراعه الطبيب وكانت من ديباج رومي. فأخذ يحادثه ويعبث بذلك الفتق حتى بلغ حد الشق (وهو الموضع المسمى في السراويل والقميص) ودار بينهما كلام اقتضى أن سأل المتوكل بختيشوع: بماذا تعللون إن الموسوس يحتاج إلى السد. فقال بختيشوع: إذا بلغ في فتق دراعه طبيبه إلى حد الشق سددناه. فضحك المتوكل حتى استلقى على ظهره وأمر له بخلعه حسنه ومال جزيل.

وكان بختيشوع هذا قد بلغ في أيام المتوكل العباسي من الجلاله والرفعة وعظم المنزله وحسن الحال وكثره المال مبلغا يفوق الوصف مع كمال المروءة حتى أنه كان يباري الخليفه في اللباس والزي والطيب والفرس والضيافات والتفسح في النفقات.

وهل سمعتم بمرثية لمسلم في مسلم مثل المرثية البارعة التي نظمها الشريف الرضي في أبي إسحاق إبراهيم الصابيء المتوفى في شوال سنة 384 ومطلعها:

عطفا أمير المؤمنين فإننا ... في دوحة العلياء لا نتفرق

ما بيننا يوم العلاء تفوت ... أبدا كلانا في العلاء معرق

إلا الخلافة ميزتك فإنني ... أنا عاطل منها وأنت مطوق

وكان للنصارى واليهود في بغداد كلمة نافذة وقول مسموع في شؤون الدولة والعامة والسياسة ويشهد بذلك ما حدثنا به صاحب تاريخ الوزراء عن يوسف بن فنحاس أوبنحاس اليهودي وزكريا بن يوحنا وأبي عمرو سعد بن القرُّحان النصراني وهرون بن عمران اليهودي وبشر بن علي النصراني وأبي سهل نصر بن علي النصراني وأبي نصر بن بشر بن عبد الأنباري النصراني وابي الفضل بنان بن بنان النصراني وعلي بن عيسى الزندافي النصراني بل النساء النصرانيات كان لهن يد في سياسة الملك مثل فرح النصرانية فقد مكان الخليفة المقتدر العباسي ينفذها في أمور الدولة ويعمل برأيها ويرسل خاتمه معها إلى من يريد تقليده الوزارة. وأمثال ذلك كثيرة حتى أن الناصر لدين الله فتح الجيش إسرائيل النصراني كاتبه والمعتضد بالله فتك ابن الوليد النصراني كاتب بدر الولاية العامة على الجيش. وكذلك فعل الوزير الكبير ابن الفرات فإنه فتح الولاية العامة على جيش المسلمين لرجل نصراني وجعل أنصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمتثلون أمره بسبب هذه الوظيفة.

وكان بيت مال المسلمين تخرج منه الإنعامات السنية لأكابر الكتاب من النصارى وتقديرها بالمائة ألف دينار كما وقع لأصطفن بن بعقوب كاتب بيت مال الخاصة في أيام ابن الفرات ولبعقوب ابنه حتى بلغت ثروتهما ألف ألف دينار.

وكان ابن الفرات قد رسم بأن يدعى في كل يوم إلى طعامه خمسة من أصحابه المسلمين وهم: أبو الحسن موسى بن خلف وأبو علي محمد بن علي بن مقلة وبو الطيب محمد بن أحمد الكلوذاني وأبو عبد الله محمد بن صاف وأبو عبد الله الذي روى ولده هذه القصة وهو أبو القاسم ابن زنجي. وأربعة

من أخصائه النصارى وهم: أبو بشر عبد الله القرُّوخان النصراني وأبو الحسن سعد بن إبراهيم السوري النصراني وأبو منصور عبد الله بن جبر النصراني وأبو عمر سعد بن القرخان النصراني. وكانوا يحضرون مجلسه في وقته من جانبه وبين يديه ويقدم إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة في كل وقت من خير كل سي ثم يجعل في الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف وكل طبق فيه سكين يقطع به صاحبه ما يحتاج إلى قطعه من سفرجل وخوخ وكمثرى ومعه طست زجاج يرمي فيه النقل فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم سلت الأطباق وقدمت الطسوت والأباريق فغسلوا أيديهم واحضرت المائدة مغشاة بديباج فوق مكبه خاز ومن تحتها سفرة أدم فاضلة عنها وحواليها مناديل الغسل من الباب المعصور. فإذا وضعت رفعت المكبة والأغشية وأخذ القوم في الأكل وأبو الحسن ابن الفرات يحدثهم ويباسطهم ويؤانسهم. فلا يزال على ذلك والألوان توضع وترفع أكثر من ساعتين. ثم ينهضون إلى مجلس في جانب المجلس الذي كانوا فيه ويغسلون أيديهم والفراشون قيام يصبون الماء عليهم والخدم وقوف على أيديهم المناديل الدبيقية وطلبات ماء الورد لمسح أيديهم وصبه على وجوههم.

وقد ذكرت هذه العبارة لأظهر ما كان للقوم من رفاهة وأنق في داخلتهم كما كان لهم من عظمة وجلال في خارجيتهم فتصل هذا النظام لو حدثنا به أحد لاتهمناه بأنه يصور لنا سنة مما يجري في منازل عظماء أوروبا وأمريكا ولولا أنه منقول بالحرف الواحد من كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء للصابيء.

ومن المقرر في الشريعة الإسلامية بناء على ما جاء في القرآن وسنة الرسول وعمل عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن العباس وعبد الله بن مسعود ومن اتبعهم من أئمة الهدى أن ذوي الأرحام ترد عليهم مواريثهم. وقد كان العمل في ذلك جاريا على هذه القاعدة بصرف النظر عن ملة الوارث سواء أكان مسلما أو ذميا. ولكن السنة قد تختفي في بعض الدول فيبطلها الحكام وظلما وعدوانا. فقد وقع أن بيت المال اغتصب حقوق هؤلاء الوارثين من مسلمين وذميين فأمر المعتضد بالله ثم المستكفي بالله بالرجوع إليها في حق كل منهما ثم تنكرت هذه السنة الشريفة فأعادها المقتدر

بالله وأصدر منشورا جعلا أمر بإظهاره وقراءته على الناس في المسجدين الجامعين بمدينة السلام وأرسله إلى جميع أصحاب الأعمال في الآفاق ومما ورد فيه بنوع التخصيص قوله: وإن يرد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً على أهل ملته.

وكان النصارى وأشباههم يعرفون حق المسلمين عليهم ويؤازرونهم في الشدة كما يستفيدون منهم في الرخاء فقد اتفق في أيام المقتدر بالله في أوائل القرن الرابع للهجرة أن القسطنطينية تولى على ملكها جدلان فعسفا أسارى المسلمين وشددا في التنكيل بهم وأجاعهم وأعراهم وطالباهم بالنصر ولم ير الوزير علي بن عيسى مساعدة من جانب الخليفة على إنفاق الأموال وتجهيز الجيوش فأشار عليه بعض جلسائه لتصريف الهم عنه بأن يوسط عظيم النصارى بإنطاكية وهو البطرك وعظيمهم بالقدس وهو الجاثليق أو القاثلق لأن أمرهما ينفذ على ملوك الروم ولا يتم لهم أمر إلا بهما وانطاعه لا يلزم جمهور رعيتهم إلا بقولهما وربما حرم الواحد منهم فيحرم عندهم فما هو إلا أن أرسل إليهما الوزير على يدي عامله في إنطاكية والقدس حتى بادر عظيما النصرانية إلى إنفاذ رسول عنهما مع رسول من العامل إلى ملكي الروم وكتبا لهما ما نصه: إنكما قد فعلتما بأسارى المسلمين عندكما ما هو محرم عليكما ومخالف لوصية المسيح عليه السلام في أصحابه وأمره فيمن جرى مجراهم. فإما زلتما عن هذه الطريقة وعدلتما عنها إلى ما تقتضيه السنة المأثورة وأحسنتما إلى من في أيديكما وتركتماهم على أديانهم ولم تكرهاهم على خلاف آرائهم وإلا لعناكما وبرئنا منكما وحرمناكما فلما وصل الرسولان إلى القسطنطينية أوصل رسول البطرك والقاثلق إلى الملكين وحجب صاحبه. وبعد أيام أذن له الملكان في المثول بين يديهما وقالا له: الذي أدى إلى ملك العرب من فعلنا بأسارى المسلمين كذب وسفاهة وقد أذنا في دخولك دار البلاط لتشاهدهم وتسمع سكرهم وتعلم استحالة ما ذكر لكم في أمرهم. فذهب فرآهم كأنما هم خارجون من القبور وقائمون إلى النشور ووجوههم دالة على ما كانوا فيه من الضر والعذاب إلا أنهم في حالة صالحة مستأنفة ورفاهة مستجدة. قال الرسول: فأعلمت بالهم فكانت جددا كلها فتبينت أنني أخرت ذلك التأخير حتى تغير أمرهم وتجدد زيهم. وقالوا لي: نحن شاكرون للملكين. فعل الله بهما وصنع مع إنعامهم إلى بأن حاطهم على ما أدى

إلينا وإنما خفف عنهم وأحسن إليهم بعد حصولي هناك. وقالوا لي في عرض قولهم: كيف عرفت صورتنا ومن نبهك على مراعاتنا حتى أنقذك من أجلنا. فقلت: ولي الوزارة والوزير أبو الحسن علي بن عيسى. فبلغه خبركم فأنفذ وفعل كذا وكذا فضجوا بالدعاء له. وسمعت امرأة منهم تقول. مر بنا علي بن عيسى لا نسي الله له ذلك الفعل. فعند ذلك بكى الوزير بكاء شديدا ثم سجد لله تعالى شاكرا حامدا.

والبلاط المذكور هنا هو دار كانت بالقسطنطينية مخصوصة لأسارى المسلمين ذكره المتنبي وأبو فراس في أشعارهم وقد ذكره أبو العباس الصفوي شاعر سيف الدوله وكان محبوسا وضربه مثلا:

أراني في حبسي مقيما كأنني ... ولم أغز في دار البلاط مقيم

ومجمل القول أن أفاضل الروم والسريان والكندان والبقالبة والقوس وسائر النصارى على اختلاف مللهم واليهود والمجوس والصابئة كانوا في أيام خلفاء بني العباس موضع الجنة والإعزاز والاحترام ووصلوا بعناية الخلفاء وأكابر الدوله من المسلمين إلى مقام محمود ودرجة لم يكن لها نظير في دوله أخرى سرقه أو غربه ولا حتى في هذه الأيام التي انتشرت فيها أعلام الحرية وانطلقت الأفكار من قيودها القديمة القديمة.

فكان الخلفاء وملوك المسلمين وأمراؤهم يجعلون نقيبهم فيهم ويسلمون إليهم طبيبهم وطب نسائهم ويأتمنونهم على حرمهم وأموالهم ويفضون غليهم بأسرار الدوله الإسلامية ويودعون عندهم أموالهم وذخائرهم ولا يجعلون بينهم وبينهم حجابا بل يستقبلونهم في كل وقت وبغير إذن مثل المسيحي نزيل بغداد وإسحق بن حنين بن إسحق ويخسوع بن جورجيس وأبي الكرم صاعد بن توما المعروف بأمين الدوله وأسباههم ممن لا نرى حاجه لسرد أسمائهم.

وكان أكابر علماء المسلمين ينقلون العلم عن أفاضل النصارى وغيرهم عملا بالحديث الشريف كما كان النصارى واليهود وغيرهم ينقلون العلوم الفلسفية وغيرها من علماء الإسلام فإن محمد بن موسى بن شاكر الذي كان أوفر الناس حظا في الهندسة والنجوم في أيام المأمون كانت له دار في بغداد ككعبة لطلاب الفضل وعشاق العلم وقد تعلم فيها كثيرون ممن جعلوا لتلك الدوله بهاء

ورواء وعطروا اسم السرفق والإسلام. نكتفي الآن بذكر ثابت بن قرة بن مروان الصابئ الحراني نزيل بغداد فإن ابن ساكر المسلم لم يكتف بتخريجه في العلم بنفسه والإنفاق عليه من ماله حتى أكمل دروسه في داره عن الأساتذة الذين كان يدر عليهم الأرزاق لتنوير الأذهان بل رأى أن لهذا الصابئ حقا عليه بهذا الجوار فوصله بالخليفة المعتضد وأدخله في جملة المنجمين فظهر فضله حتى بلغ عنده أجلّ المراتب وأعلى المنازل وكان يجلس بحضرته في كل وقت ويحادثه طويلا ويضاحكه والخليفة يقبل عليه دون وزرائه وخاصته.

وقريب من ذلك ما وقع في مصر إذ لجأ إليه موسى بن ميمون اليهودي المشهور بعد ما أكره في الأندلس على الإسلام فأظهره وحفظ القرآن واشتغل بالفقه وأسرّ اليهودية حتى إذا ما حان الفرصة خرج إلى مصر في أواخر أيام الفاطميين فلما استقر الأمر فيها لصلاح الدين الأيوبي أخذه القاضي الفاضل (عبد الرحيم بن علي البيساني) تحت جناحه واشتمل عليه وقدر له رزقا من خزينة الدولة لما رآه فيه من العلم الواسع والفضل الكامل. فإنه كان أوحد زمانه في صناعة الطب علما وعملا وكان متفننا في العلوم وله معرفة جيدة بالفلسفة وكان الناصر صلاح الدين وولده الملك الأفضل يجلان قدره كثيرا ويعتمدان على رأيه في الطب وقد تولى الرياسة العامة على جميع اليهود بديار مصر. ولقد ابتلي موسى هذا في آخر زمانه برجل من الأندلس فقيه يعرف بأبي العرب وصل إلى مصر وحاققه على إسلامه وإلزام أذاه فمنعه عنه القاضي الفاضل وقال له: رجل أكره على الإسلام لا يصح إسلامه شرعا. وقد مدحه القاضي السعيد بن سناء الملك فقال:

أرى طب جالينوس للجسم وحده ... وطب أبي عمران للعقل والجسم

فلو أنه طبّ الزمان بعلمه ... لا براه من داء الجهالة بالعلم

ولو كان يدري السم من يستطبه ... لسم له ما يدعيه من السم

وداواه يوم السم من كنف به ... وأبرأه يوم السرار من السقم

وأفادنا التاريخ أن الفارابي وهو المعلم الثاني (لأن المعلم الأول هو أرسطو طاليس) دخل العراق واستوطن بغداد وقرأ بها العلم الحكمي على يوحنا بن حيلان النصراني وأنه هو أقرأ يحيى بن عدي

النصراني المعتوق الذي انتهت إليه رياسة أهل المنطق في زمانه. وقيل أن ابا سهل عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني وهو معلم الشيخ الرئيس ابن سينا صناعة الطب وإن كان الشيخ الرئيس بعد ذلك غلب وتميز فيها وفي العلوم الحكمية حتى صنف كتبا للمسيحي وجعلها باسمه. هذا وأنتم تعلمون أن يحيى بن عيسى بن جزلة النصراني قرأ الطب على النصارى وأراد قراءة المنطق فلم يكن فيهم من يقوم بهذا الشأن وذكر له أبو علي بن الوليد شيخ المعتزلة بأنه عالم بعلم الكلام ومعرفة للألفاظ المنطقية فلازمه لقراءة المنطق ثم حسن الشيخ له الإسلام حتى استجاب وكان يطب أهل محلته وسائر معارفه بغير أجرة ولا جعالة بل احتسابا ومروءة ويحمل إليهم الأدوية بغير عوض ومن درس على شيوخ الأدب المسلمين يحيى بن سعيد ابن هانئ النصراني فقد برز في هذا الفن حتى صنف سنن مقامة على مثال البديع والحريري فأحسن فيها وكان فاضلا في علوم الأوائل وعلم العربية والشعر مرتزق بالطب.

وهذا باب كبير جدا يتسع فيه المجال لعشرة أمثال هذا المقال غير أنني ألتمس الإذن من حضرات السامعين لأقص نبأ عليهم من أغرب الأنباء:

أعرف في باريس رجلا يهوديا من الذين توفروا على درس المشرق وآدابه وتواريخه وعنوا بالتنقيب عن كل شؤونه ونشروا كثيرا من مآثره الخالدة وأسفاره الممتعة وترجموا بعضها إلى اللغات الأجنبية. ذلك الرجل هو زميلي وصديقي العلامة الفاضل هرتويغ درنبوغ ولست الآن في مكان تقريظه وتعديد حسناته وإنما أقول لكن أنني رأيته في باريس قائما بتفسير القرآن الكريم على جماعة من الطلبة الفرنساويين في مدرسة اللغات الشرقية فعجبت في نفسي من أمر هذا اليهودي الذي يشرح للنصارى في باريس وبلسان الفرنسيس كتاب المسلمين. ولكنني تذكرت تاريخ أجدادي وبه سيطل عجبكم كما بطل عجبي فقد كان الشيخ المؤرخ تقي الدين أبو العباس المقريزي المشهور صاحب كتاب الخطط المتوفى سنة 845 من الهجرة له إلمام تام بمذاهب أهل الكتاب حتى كان أفاضلهم يترددون إليه للاستفادة منه فيما يتعلق بأمور دينهم وشرح مذاهبهم ومعرفة أسرار منتهم وقد ألف كتابا سماه شارع النجاة يشتمل على جمع ما اختلف فيه البشر من اصول دياناتهم وفروعها مع بيان

أدلتها وبوجه الحق منها وهذا بخلاف ما تراه في البيانات المفيده الكبيره في كتابه المشهور بالخطط الذي طبعه الخواجه روفائيل عبد القبطي وقد أخذ الفرنساويون يترجمونه في هذه الأيام إلى لغتهم بمعرفة العلامه أوربان بوربان وبمعرفه العلامه كازانوفا المقيم بين ظهرانينا الآن لإكمال هذا العمل الجليل الذي برز في عالم المطبوعات قسم كبير منه.

ولكن ابن المقريزي وابن عنبه من الفقه الشافعي كمال الدين ابن يونس الذي تفقه في الموصل ثم توجه إلى بغداد ثم رجع إلى الموصل ومات بها رابع عشر شعبان سنه 639 فقد كان آيه ولا كالآيات وأعجوبه ولا كالأعاجيب وموسوعه ولا كالموسوعات بحر في جمع الفنون وجمع من العلوم ما لم يجمعه أحد وتفرد بعلم الرياضه واتفق الفقهاء على القول بأنه يدري أربعه وعشرين فن درايه منفنه فمن ذلك مذهب الشافعي فكان فيه أوحد الزمان وكان جماعه من الطائفه الحنفيه يشتغلون عليه بمذهبهم ويحل لهم مسائل الجامع الكبير أحسن حل مع ما هي عليه من الإشكال المشهور وكان يتفنن في الخلاف العراقي (أي على مذهب الشافعي) والبخاري (أي على مذهب الحنفي) وأصول الفقه وأصول الدين ولما وصلت كتب فخر الدين الرازي إلى الموصل وكان بها إذ ذاك جماعه من الفضلاء لم يفهم أحد منهم اصطلاحه فيها سواه وكذلك كتاب الإرشاد للإمام ركن الدين العميدي لما وقف عليه حل اصطلاحاته في ليله واحده وأقرأها على ما قالوه وكان يدري فن الحكمه والمنطق (أي كتب أرسطو طاليس المنطقيه الثمانيه) والطبعي والإلهي وكذلك فنون الرياضه من إقليدس (أي كتبه الرياضيه) والمتنه والمخروطات والموسطات والمجسطي (أي المتنه) وأنواع الحساب: الحساب منه (أي علم العدد) والجبر والمقابله والأرثماطيقي وطريقه الخطائين والموسيقى والمساحه معرفه لا يشاركه فيها غيره إلا في ظواهر هذه العلوم دون دقائقها والوقوف على حقائقها واستخرج في علم الأوفاق طرقا لم يهتد إليها أحد وكان يحب في العربيه والتصريف بحيث ما وكان له في التفسير والحديث وما يتعلق به وأسماء الرجال يد جيده وكان يحفظ من التاريخ وأيام العرب ووقائعهم والأشعار والمحاضرات شيئا كثيرا وكان في كل فن من هذه الفنون كأنه لا يعرف سواه لتفوقه فيه وبالجمله فإن مجموع ما يعلمه من الفنون لم يسمع عن أحد ممن تقدمه أنه جمعه ولقد كان

كبار المشايخ الذين لهم القدم الراسخة في العلوم يأخذون الكتاب ويجلسون بين يديه ويقرؤون عليه مع أنه لهم من الكتب الفائقة ما يشغل به الناس والطلاب بل كانوا يتركون بلادهم ويدرسيهم ويحضرون إليه للتلقي عليه ولقد تخرج عليه خلق كثير في كل فن. وليس كل ذلك سبب بذكر بجانب أمر صغير كبير اشتهر عنه وهو الذي أردت أن أختص إليه بهذه المناسبة. وذلك أن علماء النصارى واليهود كانوا يقرؤون عليه الطب والفلسفة وغيرها من العلوم التي اعتاد أهل ذلك العصر عصر النور أن يقرؤوها لأهل الكتاب ولا يمنعوهم منها. فليس في هذا شيء من الغرابة وإنما الغريب أنه مع كونه معدودا من الفقهاء والمفسرين كان كما رواه ابن خلكان وهو حجة فيه يجيء إليه أهل الذمة من اليهود

والنصارى ويقرؤون عليه التوراة والإنجيل وقد شرح لهما هذين الكتابين شرحا يعترفون أنهم لا يجدون من يوضحهما لهم مثله. ولو وقع مثل هذا في عصرنا لعد غريبا جدا. وممن قرأ عليه الحكيم تاذري الإنطاكي النحوي الذي أحكم اللغة السريانية واللاطينية بإنطاكية وبدأ بها شيئا من علوم الأوائل ثم هاجر إلى الموصل وقرأ على كمال الدين بن يونس مصنفات الفارابي وابن سينا وحل أوقليدس والمجسطي. ثم عاد إلى إنطاكية ولم يطل المكث فيها لما رأى في نفسه من التقصير في التحصيل فعاد مرة ثانية إلى ابن يونس وأنضج ما استنهأ من علمه وانحدر إلى بغداد وأتقن علم الطب وقد أوابده ونضد شوارده وقصد السلطان علاء الدين لخدمته فاستغربه ولم يقبل عليه فرحل إلى الأرمن وخدم قسطنطين أبا الملك حاتم ولم يستطب عسكرهم فسار مع رسول كان هناك للإمبرور ملك الفرنج وهو (فريدريكوس الثاني) فنال منه أفضالا ووجد له به نوالا وأقطعه مدينة بأعمالها. فلم صلح حاله وكثر ماله اشتاق إلى بلده وأهله فلم يؤذن له بالتوجه فأقام إلى أن أمكنته الفرصة بخروج الملك في بعض غزواته إلى بلد المغرب فضم أطرافه وجمع أمواله وركب سفينة كان قد أعدها لهربه وسار في البحر مع من معه من خدمه يطلبون بر عكة. فبينا هم سائرون إذ هبت ريح رمت بهم إلى مدينة كان الملك قد أرسى بها فلما أخبر تاذري بذلك تناول شيئا من سم كان معه ومات خجلا لا وجلا لأن الملك لم يكن يسمح بإهلاك مثله.

ومن جرى على هذا النحو العلامه برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي المتوفى سنه 885 فإنه فسر القرآن في كتاب له اسمه نظم الدرر في تناسب الآي والسور وهو كتاب لم يسبقه إليه أحد جمع فيه أسرار القرآن ما تحار فيه العقول وهو محفوظ بالمكتبه الخديويه وفي كثير من مكاتب القسطنطنيه ولكي يكون هذا المفسر المحقق على بصيرة من أمره استمد كثيرا من الأمور والبيانات من التوراه والإنجيل وقد أشار في أوله إلى التوراه التي اعتمد عليها فقال ما نصه: واعلم أن أكثر ما ذكرته في كتابي هذا من نسخه وقعت لي لم أدر اسم مترجمها وعلى حواشي فصولها الأوقات التي تقرأ فيها والظاهر أنها نسخه اليهود وهي قديمه جدا فكان في الورقه الأولى منها محوّ في أطرف الأسطر فكملته من نسخه السبعين ثم قابلت نسختي كلها مع بعض اليهود الربانيين على ترجمه سعد الفيومي وهي عندهم أحسن التراجم فوجدت نسختي أقرب إلى حقائق اللفظ العبراني ومترجمها أقعد من سعيد في لغه العرب. وسعيد هو المشهور باسم سعديا. وقد ذكره صاحب كتاب الفهرست.

وكان البقاعي كلما ذكر قصه مما ورد في القرآن تتعلق بأهل الكتاب شرح أمرها من التوراه غيرها من صحف المثل المتقدمه مثال ذلك أنه أشار في بعض المواضع إلى إحدى القصص فشرح أمرها من التوراه فقال ما نصه: في آخر السفر الرابع منها في النسخ الموجوده بين أظهر اليهود الآن في هذا القرن التاسع فيما قرأته من نسخه مترجمه بالعربيه وخطها كذلك وعليه آثار قرءتهم لها وبيان الأوقات التي تقرأ فيها كل فصل منها ثم قابلتها بالمعنى مع شخص منهم وكان هو القارئ منهم ما نصه: وهذه مظاعن بني إسرائيل حيث خرجوا من أرض مصر بأجنادهم على يدي موسى وهارون وكتب موسى مخارجهم ومراحلهم عن قول الرب: ظعنوا من رعمسس (وفي نسخه من عين شمس) في خمسه عشر يوما من الشهر الأول.

ولذلك قام عليه بعض الجهلة من أهل عصره وقبحوا طريقه فحيهم الله وأهانوه وسعوا به لدى الحكام ونفوه واضطهدوه بكل ما في وسعهم ولكن الرجل بقي على عمله حتى أتم تفسيره وصنف

أيضا بسبب ذلك كتابين أحدهما قواعد النظر في الإشراف على مقاصد السور والثاني: الأقوال الموجهة في حكم النقل من الكتب القديمة وهو محفوظ بالكتبخانة الخديوية.

تأتي البقية

حكم منوعة

حكم في سيرة الحياة

منخصة من كتب ديانة الهنود القديمة

تطهير النفس بمعرفة الذات وضبطها عن الشر وبالاستقامة والأدب والدين.

الأم أثقل من الأرض والأب أعلى من السموات والعقل أسرع من الريح والأفكار أكثر عددا من العشب.

صديق رب البيت الزوجة وصديق الغريب في بلاد بعيدة الرفيق وصديق المريض الطبيب، وصديق المسرف على الموت الصدقة.

أعظم خير للفضل الكرم. وللسيرة العطاء وللسماء الحق، وللسعادة السيرة الحسنة.

الابن هو نفس الإنسان، والزوجة عطية من الله، وأخص مقتنى الإنسان من الغموم.

خير ما يمدح الحذق وخير ما تُقتنى العلم وخير ما يكسب العافية وخير أنواع السعادة القناعة.

أعظم ما يجب على الإنسان الامتناع عن الإضرار بالناس.

إذا أبى الإنسان الكبرياء كان محبوبا وإذا أبى الغضب فلا يندم وإذا أبى الهوى صار غنيا وإذا أبى الطمع كان سعيدا.

زجر النفس أحق الزجر. الصفح يقوم بالصبر على العداوة، والابتعاد عن كل عمل معيب يخلص من الخجل والعار. والرحمة قائمة بطلب الخير للكل. والبساطة راحة القلب.

الغضب عدوٌ لا يغلب والطمع داء لا دواء له، والصادق من يريد الخير لجميع خلق الله وغير الصادق من لا رحمة فيه.

الجهل الحقيقي هو الجهل بما يجب عمله. والكسل عدم القيام بما يجب عمله.

الغسل الحقيقي غسل القلب من أوساخه. والصدقة مساعدة كل مخلوق محتاج.

العالم من علم ما يجب عليه. والحسد ليس إلا حزن للقلب.

الجهل الأعمى هو الكبرياء. ونشر كلام السوء في الغير.

من بعد ولا بغي والغنى الذي لا يعطي ولا ينفق على نفسه بخلا كلاهما في النار الخالدة.

من يقول قولا سهلا صار سهلا عند الكل ومن عمل بالحزم نال ما طلب ومن كان له خلان كثيرون كان سعيدا ومن تابع الفضل كان له نصيب سعيد في الآخرة.

السعيد من لا دين عليه ومن يلازم بيته.

يذهب اليوم بعد اليوم أناس لا يحصى عددهم إلى منازل الموتى وأما الأحياء المتأخرون فيظنون أنفسهم خالدين في الحياة.

خير العمل الصالح يبلغ عنان السماء وينتشر في الأرض فما دام هذا الخير كائنا يدعى الرجل رجلا.

من استوى عنده الطيب والمكروه والخير والشر والماضي والحاضر فهو المالك لعامة أنواع المروءة.

من أقوال الفلاسفة القدماء

الحواس كالشمس فكما أن الشمس تخفي السموات وتجلي رؤية الأرض هكذا الحواس تخفي الأشياء السماوية وتظهر الأشياء الأرضية.

الاسم الحسن كالنار إذا اشتعلت مرة سهل دوام اشتعالها وإذا انطفأت لم يسهل إعادة اشتعالها.

الحب الذي لا غاية له هو الحب الذي لا غرض دنيّ منه.

أحوج ما في العلم لفائدة الحياة نسيان ما هو غير صحيح.

يعلم الحكماء من الجهال أكثر مما يعلم الجهال من الحكماء.

ليست الرحمة صفة مغصوبة بل هي آتية من السماء كالمطر الرذاذ إلى ما تحتها وبركتها بركتان، بركة للمعطي وبركة للآخذ. وهي أجدر بالملك الجالس على عرشه من تاجه. وهي صفة ذات الله فتصير القوة الأرضية أشبه بقوة الله متى لطفت الرحمة العدل. وإن كان العدل حجتك فاعلم أن من

هذا الوجه لا يرى أحد منا نجاة عند الله إلا أننا نلتجيء إلى رحمته وهذا الالتجاء يعمنا جميعا أعمال الرحمة (سكسبير).

بيرون

يوحنا وريبات

حكم عصرية

للمأسوف عليها العقيلة أنيسة كريمة الشيخ سعد الخوري السريوني

أحقر الناس جاهل ابن عالم وفقير ابن غني.

ميراث كبير تعويد الولد العمل واجتناب المحرمات.

من أحرز العلم بلغ ذروة الشرف.

أجلّ الناس من جمع بين العلم والمال والفضيلة.

أفضل رجال الدين من عمّ في جوارهم الفضائل وانتشرت في معاشريهم نفحات الصلاح.

معاشرة العلماء ضياءٌ ومعاشرة الجهال ظلام.

جرائد كل عصر أصدق شاهد على أخلاق أهله وطبقاتهم في العلم.

لا مؤونة للقلم واللسان بعد اللغة كالتاريخ والجغرافية.

حافظ التاريخ والجغرافية ولطف الشعر والأمثال والحكم زينة المجالس وفاكهة المحاضر.

لا تضعف العدل والدين إلا متى كان زمامهما في أيدي أعدائهما

ما نظر الحكيم في شيء عبثا استخرج منه فائدة.

لا سعد إلا من اعتصم بحبل الله.

الفضلاء في الناس كالجواهر في الحجارة.

قسمة العلماء في الأمم السالفة قسمة المصابيح عند العميان.

لا يغلب الحق وإن قل أنصاره.

من أقطع العار أن يخالف الديانة من يسود باسم الديانة.

الوعظ في قلب السرير كالماء الطاهر في المجرى النجس.

أفضل ما تعمله المدارس اختيار الفضلاء البارعين للتربية والتعليم.

أمن الهدايا نصائح الحكام.

مجاورة الصالحين كمجاورة النباتات العطرية.

أملك الناس للقلوب مهذب حميد السيرة.

من أحكم علما عامل به.

أولى الناس بالتزام السيرة الصالحة الحاكم والكاهن والطبيب فكل منهم مقتدى.

استخدام الفقير أنفع من التصدق عليه.

جدة المبادئ كالشباب وقدامتها كالشيخوخة فأصحاب المبادئ الجديدة ذوو هرم قوية وأصحاب المبادئ القديمة ضعاف الهمم.

من أحسن وسائل النهوض الترغيب في حسن الذكر.

من أفضل الكتب التي يستمتع عليها الآداب كتاب للسماك.

الدين كالفوزة اجتناب المحرمات فيه والتكالف قشره والمحافظة على القشر بعد إتلاف اللب رديء.

أفضل المتمتعين من لا يبلي الدهور كلامهم.

جوامع الكلام

منقولة عن الإنكليزية

حسبك الله أصل المعرفة والجنون من يزدري بها

(رأس الحكمة مخافة الله).

فطرنا على حب الحياة ولو أنها قليلة اللذات.

(جبلنا على حب الحياة وإنها ... مخيفة أحلام أطافت بحالم)

جانب السرير ولا تسر في سبيل أهل الدعارة فهم لا يأكلون غير الطعام الخبيث ولا يكرعون إلا من نبذ النجوم.

لكل إنسان أن يعيش الدهر إذا كانت حياته روحية لا جسدية إذا كانت حياته في طلب الحكمة وتخليد المآثر. وهذه حياة العظماء تؤكد لنا ذلك.

الناس دون جهادهم فوني ول ... كن الأُلى عملوا المدى أحياء

وفي هذا المعنى قال الرافعي أيضا:

وما غير العظائم باقيات ... تكرر ذكرها في كل آن

تعمل المرء في حياته إما أعمالا حسنة أو سيئة وعلى قدر ذلك يرتب هناؤه أو تعسه في الوجود.

النجاح لا يقع اختياره إلا على رجل واحد من الناس لا يصاحب سواه وهذا الرجل هو الذي لا يعمل عملا قبل أن يُعمل فكره فيه.

قال وليم شكسبير: إنما العالم مسرح والناس من رجال ونساء ليسو سوى ممثلين يظهر كل منهم ويختفي. والمرء في حياته يمثل سبعة أدوار. فالدور الأول وهو زمن الطفولة إذ يكون رضيعا يصرخ ويتبرز بين ذراعي مرضعته. والثاني حين يصبح يتمشدق يحمل قيطره ووجهه يفيض بشرا وسناء في الصباح يقفز كقطر البجع ويتظلم من الذهاب إلى المدرسة. والثالث دور الهوى وهو الزمن الذي يكون فيه عاشقا يتنهد بتنهدات حارة تحكي زفرات الأفران وهو ينشد أغاني مطربة يخاطب بها لحاظ مالكة فؤاده. والدور الرابع وهو دور الشجاعة والإقدام حين يكون جنديا يقسم الإيمانات ولحيته تشبه لحية النمر: يغار على الشرف ويقتحم الغارات بخفة باحثا عنها بجده فخارا ولو في فوهات المدافع. هذا الفخار الذي أراه كحباب الماء لا يدوم ولا يثبت. والخامس وهو الدور الذي يجلس فيه على سرير الأحكام ويقضي بين الناس وبطنه ممتلئ مستدير وبصره حاد ولحيته مقصوصة قصا مخصوصا: عقله راجح وفكره ملم بكثير من الحوادث واع لما صدر فيها من الأحكام. والسادس يبدأ باكتساء الأردية الرفيعة القماش الواسعة الحجم ووضعه المنظار أمام عينه وتعلقه كيسا بجانبه وقد غدت جواربه التي كان يلبسها وقت الصغر غير ملائمة لرجله لكبر حجمها وصوته ضئيلا مستعيرا يحاكي صوت الأطفال.

أما المنظر الأخير الذي ينتهي به هذا التاريخ المحزن الغريب فهو الطفولة الثانية بمعنى السخوخة والخبل المتناهي بتبعه فقد السنان والبصر والذوق بل وتضعضع جمع الجسد وقال كذلك على لسان ماكبث:

انطفئ يا ذا السراج انطفئ ... فإن الحياة خيال يسير

وقال أيضا: تأمل كثيرا وتكلم قليلا ولا تسرع في تحقيق رأي بعجز عقلك دونه. عامل الناس بالعرف وراع واجبات الصداقة وضم من صادقتهم وتحقق إخلاصهم إلى قلبك وعلقهم بأطواق من الحديد ولاتضع كل إنسان حديث العهد بالمعرفة بك موضعا عنا فتعلق يدك الأكدار. حاذر من التسارع مع أحد وإذا قدر لك هذا فاجتهد في إرهاب خصمك. أعر كل إنسان سمعك ولا تدع صوتك يقرع إلاّ آذان قلة قليلة من الناس.

وقال بوحنا رسكن: خلق الإنسان لثلاثة دواع وهي العمل والأسى (الحزن) والسرور وكل من هذه الثلاثة له درجات: وضيعة ورفيعة. فهناك عمل وضيع وعمل رفيع. وهناك حزن هين وآخر شديد. وكذلك فرح قليل وسرور مفرط فلنزمك أن لا تنأى عن الجمع بين هذي الثلاث ظنا منك أنه ينأى لك أن تحيا بدونها فليست هناك نفس خلت من السبب بها فاتجر وهبها. والعمل بدون السرور رديء وهو بدون الحزن كذلك.

والحزن من غير العمل قاتل وكذلك الحبور بدون العمل. وقال: تواضع على قدر ما ترغب فليس التواضع مؤذ لإنسان ولكن خلّ سرفك في الخل الأول. وقال: لا تقدم في سبيل الحياة إلا من كان قلبه آخذا بزمام لبه ودمه حراره وخاطره سرعة ونفسه رغبة في العمل مع السلام وأولئك الذين يوجد فيهم هذا الشعور هم هم — لا غيرهم — الأمراء والملوك الحقيقون في الأرض.

القاهره

أ. ز. أ

الساعة

وخرساء لم تنطق بحرف لسانها ... سوى صوت عرق نابض بحساها
حكت لهجة السقام لفظا ولم تكن ... لتفصح إلاّ بالزمان لغاها
لها ضربانٌ في الحشا قد حكت به ... فؤادا تغشاه الهوى وحكاها
جزت حركات الدهر في ضرباتها ... وبانت مواقيت الورى بعداها
على وجهها خطت علائم هندي ... بها الناس في أوقاتها لتراها
مست بين آنات الزمان نفسه ... وما هو إلاّ مسها وخطاها
بها تقاضى الناس ما يوعدونه ... ويرسد ضلال الزمان هداها
غدت كأخي الإيمان يأكل في عا ... وما أكلها إلاّ الوفاءُ معاها
تدور عليها عقرب دور حائر ... بسيماء غمت في الظلام ضواها
ترينك مكان الشمس في دورانها ... إذا حجبت عنك الغيوم ضياها
فأعجب بما مصحوبه جاء صنعها ... تسجل أفكار الورى وحجاها
بسيما النهى في الغابرين بسطه ... فتمّ على مرّ الزمان بناها
تنادي بني الدنيا في نقرانها ... أن اسعوا بجدّ بالغين مداها
ولا تهملوا الأوقات فهي بوائرٌ ... تقطع أوصال الحياة سواها

بغداد

معروف الرصافي

السرق

رعى الله عهدا بالحمى يرجع ... وهل راجع ما فات والقوم هجع
وقد كان فيه من أقاموا بجدهم ... أراكين مجد دوخا القوم خسع
وسادوا فصور المكرمات واطنعوا ... بدور علوم ما لها اليوم مطلع
وقد غربت في الغرب شمس علومهم ... فهل بعد ما تقضي الليالة تطلع

فإن عهدنا السمس تحجب لمله ... ولو ليست عنا لنالي تجزع
فما باطل يمضي القرون ولا نرى ... جمال محاها على السرف يسطع
فهل لك يا نور الوجود ضغينة ... على أهله أم هم إلى اللهو نزّع
سنوك فأسنوك المرابع بعد ما ... سفرت لهم دهرا ومالك برقع
وما السرف إلا منزل نام أهله ... طويلا فما يدرون ما الناس صنع
فما علماء العصر أسكو إليكم ... فهل عندكم للسكو يا قوم موضع
فإن لم يجيبوا داعي الله للغنى ... فللصبر إن لم ينفع السكو أوسع

بيروت
الغلاييني

مطبوعات ومخطوطات

مبادئ اللغة

للشيخ الإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي المتوفى سنه 421 هجري مع شرحه له عني بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي وطبع على نفقه أحمد أفندي ناجي الجمالي ومحمد أمين أفندي الخانجي وأخيه بمصر عن نسخه جيء بها من بغداد وقد وجد في الأصل المنقول عنه هذا الكتاب أعني مبادئ اللغة مستخرج من كتاب العين للخليل ونوادر ابن الأعرابي وحروف أبي عمرو الشيباني ومصنف أبي زيد وجمهرة ابن دريد الأزدي. وفي الكتاب كثير من الفصيح الذي أخذه صاحب فقه اللغه وهو مما ينتفع به المترجمون والمؤلفون في هذا العصر وفيه فصيح كثير وردت في أبواب منه مثل باب الكسوه ويدخل تحتها أصناف الثياب والملابس وباب البسط والفرش ونحوهما وباب الحلي والجواهر وباب الأواني والسراج وأبواب الطعام والطبخ والألبان والشراب وآلات البيت والأدوات وآلات الكتابة والزراع والسلاح وغير ذلك مما يلزم المخاطبين في سفرهم ومقامهم وليلهم ونهارهم وبيوتهم وأعمالهم وحضارهم وبأخرهم. وحبذا لو أضاف إليه طابعوه

فهرسا بأسماء أبوابه وبيان فوائده وسوراده وأوابده. وقد وقع في 204 صفحات وعنه سبعه قروش مجلدا

توفيق المواد النظاميه لأحكام الشريعه المحمديه

هي رساله للمرحوم الشيخ محمد السطي المتوفى سنه 1307 ذكر فيها ماده مما وافق فيها القانون العثماني الشرع الإسلامي قال في مقدمته: ولما نشأ من تشبث بعض العلماء على الملوك السابقين جعل الحكم على قسمين شرعي ونظامي يبادر إلى الأذهان أن الحكم النظامي مخالف للشريعه المطهره المأخوذه من القرآن والسنه ومن تتبع أقوال الأئمه المجتهدين وأحكام الصحابه والتابعين وجد أن الأحكام كلها مأخوذه عن سد المرسلين والرساله مطبوعه طبعا جيدا في مطبعه الشيخ فرج الله زكي بمصر

تقويم المؤيد

صدر تقويم المؤيد عن سنه 1326 وهي السنه الحادية عشرة له يؤلف محمد أفندي مسعود المعروف بسعه اطلاعه وعلمه وأدبه حافلا بأجل الفوائد التي تحتاج إليها الخاصه والعامه والرجال والنساء والمصريون والغرباء ولا عجب إذا قلنا أنه صوره مصغره من تاريخ مصر وما يلزم لساكنيها خصوصا بل لساكن البلاد العربيه عامه من المعلومات الفلكيه والفنيه والأدبيه وأخبار الملوك والممالك والحوادث والمعاهدات الدوليه والمسائل السياسيه وأحوال الزراعه وتدبير المنزل وما تم من أسالب الارتقاء المادي والأدبي في مصر في السنه الماضيه وقد طبع في مطبعه المؤيد طبعا جميلا ويطلب من إدارتها وعنه خمسه قروش فنحث على اقتنائه ونرجو أن يوفق مؤلفه إلى إصداره سنين كثيره لتزيده ارتقاء فوق ارتقائه خدمة للغه وأهلها.

مجموعه خطب

للشيخ جمال الدين القاسمي وهي خطب جمعه منبريه مقتبسه من خطب نبويه وصحابيه وأئمه مساهير موضوعها العقائد والعبادات والمعاملات والمسائل والأوامر والزواجر والآداب والأخلاق والمواعظ وأحوال المعاد وهي في نحو 130 صفحه صغيره جميله الوضع والانتخاب وكنا نود لو

كانت كلها مما كتب قبل القرن السادس لجمع الفائدين كما هي نافعه في الدارين. تطلب من طابعها محمد أفندي هاشم الكتبي في دمشق.

ساحة في الثبت

ترجم عن التركيه حكمت بك سرشف ساحة مختصره في بعض مجاهل آسيا كما ترجم من قبل تاريخ زنجبار وسيام فعساه يترجم أو يؤلف لنا رحلة أو تاريخا عن هذا الشرق الأدنى أو الغرب فكتب بعد تبت عن العراق ونجد والحجاز واليمن ويحدثنا بعد زنجبار وسيام بأخبار آسيا الصغرى وبلاد الشام. تطلب الرحلة من المكتبة الرفاعية في طرابلس الشام.

دليل السلام

أصدرت إدارة جريدة السلام التي تطبع بالعربية في بوينس أيرس عاصمة الأرجنتين (الجمهورية الفضية) دليلا يحتوي على أهم الفوائد التجارية والإحصائية والتاريخية والحسابية والأخبار والفكاهات بالعربية والإسبانولية جاء فيه أن عدد السوريين في تلك البلاد يربو عن 45 ألفا وأن عدد الجرائد والمجلات التي صدرت بالعربية منذ سنة 1891 في أميركا الشمالية والجنوبية قد بلغت إلى الآن أربعين بقي منها حيا 21 وفي هذا الدليل فهرس عام لتجار السوريين في الأرجنتين وفيه صور كثيرة وفوائد غزيرة وإعلانات جمة والرجال والنساء والمصريون والغرباء ولا عجب إذا قلنا أنه صورة مصغرة من تاريخ مصر وما يلزم لساكنيها خصوصا بل لساكن البلاد العربية عامة من المعلومات الفلكية والفنية والأدبية وأخبار الملوك والممالك والحوادث والمعاهدات الدولية والمسائل السياسية وأحوال الزراعة وتدبير المنزل وما تم من أساليب الارتقاء المادي والأدبي في مصر في السنة الماضية وقد طبع في مطبعة المؤيد طبعا جميلا ويطلب من إدارتها وثمنه خمسة قروش فنحث على اقتنائه ونرجو أن يوفق مؤلفه إلى إصداره سنين كثيرة ليزيده ارتقاء فوق ارتقائه خدمة للغة وأهلها.

مجموعة خطب

للشيخ جمال الدين القاسمي وهي خطب جمعة منبرية منتخبة من خطب نبوية وصحابية وأئمة مشاهير موضوعها العقائد والعبادات والمعاملات والشمائل والأوامر والنواجر والآداب والأخلاق

والمواعظ وأحوال المعاد وهي في نحو 130 صفحة صغيرة جيدة الوضع والانتخاب وكنا نود لو كانت كلها مما كتب قبل القرن السادس ليجمع الفائدتين كما هي نافعة في الدارين. تطلب من طابعها محمد أفندي هاشم الكتبي في دمشق.

ساحة في البيت

ترجم عن التركية حكمت بك شرف ساحة مختصرة في بعض مجاهل آسيا كما ترجم من قبل تاريخ زنجبار وسيام فعساه يترجم أو يؤلف لنا رحلة أو تاريخاً عن هذا الشرق الأدنى أو القريب فكتب بعد بيت عن العراق ونجد والحجاز واليمن ويحدثنا بعد زنجبار وسيام بأخبار آسيا الصغرى وبلاد الشام. تطلب الرحلة من المكتبة الرفاعية في طرابلس الشام.

دليل السلام

أصدرت إدارة جريدة السلام التي تطبع بالعربية في بوينس آيرس عاصمة الأرجنتين (الجمهورية الفضية) دليلاً يحتوي على أهم الفوائد التجارية والإحصائية والتاريخية والحسابية والأخبار والفكاهات بالعربية والإسبانيولية جاء فيه أن عدد السوريين في تلك البلاد يربو عن 45 ألفاً وأن عدد الجرائد والمجلات التي صدرت بالعربية منذ سنة 1891 في أميركا الشمالية والجنوبية قد بلغت إلى الآن أربعين بقي منها حيا 21 وفي هذا الدليل فهرس عام لتجار السوريين في الأرجنتين وفيه صور كثيرة وفوائد غزيرة وإعلانات جمة وجاء فيه أن أحوال الجالية هناك على أحسن ما يكون من الارتقاء فمنذ بضعة سنين كان يندر أن تجد محلاً تجارياً قائماً بما يتطلبه نظام التجارة من ضبط دفاتر وحسابات واليوم نرى مثل هذه المحال مئات ومنذ بضع سنوات كان تنقضي السنوات ولا نسمع بجمعية أسست أو مشروع قام وفي أيامنا لا تخلو سنة من عشرات المشاريع تقوم بها المنتبهون عن كفاءة وشعور

اللباب

هي مجلة علمية فلسفية طبية زراعية تصدر في القاهرة في أول كل شهر لصاحبها م. ا. ا. ن ومديرها خليل أفندي مولود جاءتنا الأجزاء الثلاثة الأولى منها فقرأنا فيها عدة مقالات مختصرة في المعنى

الذي نرمي إليه قالت في مقدمته: إننا نرمي في كلامنا على بطء مسير حركة العلم ونضوب معين الأقلام في العثور على استجلاء الحقائق والقحط الذي أصاب أدمغة رجال الأقلام وأرباب الكتابة والتأليف ولم نحاول جمع المطالب العصرية التي عقمت بها أرحام الأقلام وأجدبت عن إنباتها رياض الإفهام وغدت بها مجالات العلم والأدب عاطلة على النقل والعرب عن منشآت أوروبا حالة أن مجال الكتابة أرحب من الفضاء وموضوع عمراننا أغزر من الدماء ولم الألسنة قد انشقت إلا لتزين التقليد والتقاعد عن ركوب خطة التوليد ولم نر الخواطر قد انفدحت إلا لاختراع ضروب النقل والمسخ فكاثرة لهذا النوع من الكتابة الذي جر على العربية وآدابها معرة النقص وأورث صناعة الأدب كسادا وأي كساد.

وإنا لندعو أن يوفق رصفتنا الجديدة إلى سد هذا النقص المحسوس في اللغة العربية ونعني به التوليد والاختراع والبعد عن مواطن التقليد والجمود من نقل وتعريب. وفي كل جزء من الأجزاء الثلاثة مقالة للأمير شكيب أرسلان الأولى في الانتقاد والثانية في حضة العرب والثالثة في بركة الفضل أخذ الآثار. والمجلة سلسة العبارة لطيفة المزع تصدر في 56 صفحة في حرف واضح جلي وطبع سليم نقي وقيمة اشتراكها في القطر خمسون قرشا وسبعون في سائر القطار فنرحب بها ونتمنى لها الثبات في خدمة اللغة والآداب والإقبال الذي تستحقه.

سورا

هي مجلة علمية أدبية فيها بعض أبحاث تصدر مرتين في الشهر باللغة التركية في مدينة أورنبورغ من أعمال روسيا لصاحبيها محمد ساكر أفندي ومحمد ذاكر أفندي رامبف ومحررها رضاء الدين أفندي بن فخر الدين صدر منها إلى الآن ستة أجزاء فتلوناها مسرورين من نشاط أخواننا الروسيين في خدمة المعارف والآداب وعبارتها تركية سهلة تسعى كاتبيها إلى تقريبها من التركية العثمانية لتعم الانتفاع بها وفي هذه الأجزاء مقالات لطيفة تدل على سلامة ذوق الكاتب وأدبه الجم وفيها بعض صور لمشاهير الروسيين المسلمين ممن كان لهم أثر في نهوضهم الاجتماعي والعلمي مثل الشيخ شامل وغيره وتراجم موجزة لهم وقيمة اشتراكها أربعة روبلات وإذا اشترك المشترك بها مع جريدة وقت

يؤخذ منه سبعة روبلات وما حبذا لو جعلت هذه المجلة منزعة واحدة منها باللغة العربية ينقل فيها أهم ما يهم الأمة من أخبار تلك البلاد وفضلها العلمية والأدبية تجعلها ملحقا في كل جزء من أجزائها فيكون لها سأن بين قراء العربية كما لها سأن بين قراء الناطقة والتركية.

المفضليات

طبع الشيخ أبو بكر بن عمر داغستاني والشيخ حمزة أفندي حلواني مختارات المفضل الضبي التي اختارها من شعر العرب للمهدي بطلب من أمير المؤمنين المنصور فجاءت في نحو مئتي صفحة متوسطة مشكولة كلها ما خلا الشرح الخفيف الذي علقه عليها الشيخ أبو بكر الموما إليه والمفضليات غنية عن التعريف وهي تطلب من مكتبة مصطفى أفندي البابي الحلبي وأخويه في مصر بستة قروش.

تقرير المجمع العلمي الشرقي السنوي

من أعظم المجامع العلمية في الولايات المتحدة المجمع الشرقي الذي أسس في نيويورك سنة 1846 بمال جاد به رجل اسمه شيون ولا تزال أعماله في نجاح سنة بعد سنة كما يفهم من تقاريره السنوية وأمامنا الآن تقريره عن سنة 1906 شرحت فيه الجمعية ميزانيتها التي بلغت مئات الدولارات وذكرت أسماء من تبرعوا لها بالأموال وفيه مقالات كثيرة لمشاهير كتاب الطبيعة والكيمياء والفلك والحيوان والنبات من أميركان وفرنسيس وغيرهم مما تنشر منه كل سنة ليكون عونا للناس على العلم والاستنارة والتقرير يقع في نحو 550 صفحة جيد الطبع جدا نفيس الورق وهو حاو لرسوم علمية وصورات جغرافية كثيرة فنثني على رجال هذا المجمع بما هم أهله ونتمنى لشرقنا المسكين ولو مجمعا واحدا من مثل مجمعهم النافع.

نادي دار العلوم

أحسن هذا النادي بأن طبع ما ألقي فيه من الخطب هذا الشتاء في موضوع اللغة العربية وتسميته المسميات الحديثة فإن فيها من المباحث ما هو جدير بأن تتناقله كل يد فتقي كل بلد وقد قرر النادي حلا لهذا الإشكال أن يبحث في اللغة العربية عن أسماء المسميات الحديثة بأي طريق من الطرق

الجائزة لغة فإذا لم يتسر ذلك بعد البحث الشديد يستعار اللفظ الأعجمي بعد صقله ووضعه على مناهج اللغة العربية. فنرجو أن يوفق القائمون بهذا المشروع إلى تأليف المجمع الذي ينوون تأسيسه للنظر في هذا الغرض الشريف

سير العلوم والاجتماع

التعليم والذكاء

من المعروف الشائع أن التعليم يزيد الذكاء حدة وينوي الذهن إلا أن طبيين نفسانيين قد بحثا بحثا طويلا في ذلك فبين لهما أن الولد ينسى بعد خمس سنين من سنه ما تعلمه من قبل نسيانا تاما فالذاكرة كما يتوفر على تنميتها في المدارس لا يبقى فيها سيء بل أن العقل لا يحاول أن يعرف ما يجهل وقليل من الأولاد من حازوا من المعارف قسطا مما لم يعلموه في المدارس ومما يعرفونه كثير مبادئ وبزول أثره من الذهن في الغالب. وقد سأل أحد الدكتورين تسعة وثلاثين تلميذا من الصفوف العالية وتسعة وثلاثين تلميذا من الصفوف الواطئة وثمانية وخمسين تلميذا من الكتاتيب أسئلة كثيرة بسيطة فلم يكن الجواب إلا التسجيل عليهم بالجهل المطبق وفي المسائل التي كان ينبغي لها سيء من صحة الحكم كان سكوتهم عنها محزنا فاستنتج من ذلك أن التعليم لا يساعد إلا قليلا جدا على تقوية العقل وينبغي إصلاحه على صورة عمله أكثر من الآن. وهذا الرأي موافق لرأي هارون غورست الذي يرى المعارف المدرسية للذكاء أشبه بسم حقني ولذلك يطلب أن يكون الامتحان محدودا معتنا وأن كل من يعاني صناعة بموجب شهادة يده يجب عليه أن يفحص أمام جماعة من المحكمين كل خمس سنين وما هذا إلا لأن التعليم اليوم يقتصر فيه على الإكثار من الكتب والإكثار من الامتحان التفاهي وتعلم الألفاظ والجمل وإهمال التزود من الأفكار وتمرين العقل على التفنن فيها وإيجادها.

التفروزين

هو نبات ينبت في جزيرة سلان وكولومبيا وأمريكا الوسطى وهو يستعمل للصباغ ويخرج منه نوع صباغ من النيلة ويكون منه مسهل ويستعمله الأمريكان لتدويخ السمك لسهل صيده وقد قرأ أحدهم في مجمع العلوم البارزي تقريرا جاء فيه أن هذا النبات من السموم الشديدة وأن الصيادين لا يسكرون به السمك بل يسممونها ورأى أن يتافسوا الحساب في استعماله ويمنع بيعه إن أمكن.

بعد الشمس

ثبت أن الشمس بعده عن الأرض أكثر مما كان معروفا فبعد رصدها 2600 مرة بالتسكوب و11000 مرة بالصور الشمسية تبين أن الشمس بعدة عن 149471000 كيلومتر وكانوا يقولون منذ عهد كبلر أنها بعده 148500000 كيلومتر والفضل في هذا التحقيق يرجع إلى ما اكتشفه المرصد الفلكي في برلين سنة 1898 من نجم مذنب صغير لم يكن معروفا من قبل سموه (اليروس) وهو يقترب من الأرض بعد الأخرين فساعد هذا النجم على حساب بعد الشمس

الأرق

أثبت أحد روّاد الإنكليز خلال صعوده جبل كون كون في بلاد كشمير شمالي الهند أن النوم على علو سبعة آلاف متر يقل ويخالف السهاد المقل لأن الأوكسجين نادر والنفس يصعب فلا يثبت المرء أن يغفى حتى يستيقظ كالمذعور

أغنى كلية

أغنى كلية في العالم هي كلية هارفرد الجامعة في الولايات المتحدة فإن رأي مالها خمسة وعشرون مليون جنيه فإذا أضيف إليها ثمن أراضيها وأماكنها وخزائن كتبها ومستشفاها بلغ مجموعها نحو ثمانية وثلاثين مليونا وهذه المدرسة بعيدة عن مدينة نيو كمبردج. وفي هذه الولاية تحظر بيع المشروبات الروحية. ويقبض رئيسها راتبا في السنة ستة آلاف دولار وكل أستاذ ثمانمائة جنيه وكل مساعد أستاذ أربعمائة جنيه وفيها نحو 500 أستاذ و 4000 طالب.

تبرج النساء

كتب باولو لومبروزو العالم الإيطالي مقالة في هذا الموضوع قال فيها أنه ثبت أن أصل البرج المعهود في النساء كان في أول الأمر مألوفا لهن فأخذن يعمدن إليه استمالة لقلوب الرجال وما زلن في تفننهن حتى صار فيهن على كرور الأعصار عادة وجبلة. فقد شوهد أن النساء المجنونات تفقدن لأول عهدهن بالجنون الرقة والحشمة والطهارة على أن حب البرج يبقى مغروسا فيهن فيحرصن عليه. والبرج مما عنت به البغوى كل النساء بدون استثناء فتراه عند الأميرة الكبيرة كما تراه عند الزنجية الحقيرة ولهن في التفنن بذلك أساليب حتى أن إحدى الغانيات الكبيرات في أميركا أراد أن يزورها ذات يوم أحد الأمراء من بعض الأسرات المالكة فأهيب لذلك بأن أوصت على قفطانين جميلين إحداهما وردي والآخر أبيض صرفت فيهما ألفي جنيه. ولكن كيف السبيل إلى أن تظهر أمام الأمير بالقفطانين في آن واحد فأوعزت إلى خادم لها وهي على المائدة أن يلقي عليها شيئا من المرق من صفحة تحملها فعندما انسلت إلى غرفة برجها ولبست القفطان الآخر فهم لها ما أرادت من الظهور أمام الأمير في لونين تحسن في آن واحد. ولبست المرأة محبة للبرج في جميع طبقات المجتمع الآن بل كانت كذلك منذ العصور المطاولة في زمن يكاد يكون فيه اختراع السكة والمخترات جديدا أي في العصر الذي كان الإنسان يسكن فيه المغاور. فقد عمروا في بعض الكهوف على أقواط وحنق وأساور. وترى النساء المتوحشات لا يبالين بالألم ويفادين بكل عزيز في سبيل برجهن فيضعن الوسم على أكثر أطراف أجسمهن تأثيرا كالفم والصدر وشحمة الآذان وأنوفهن وسفاهيهن ويدخلن في ثناياهن قطعا من الخشب وشظايا أسنانهن ويضغطن على رؤوسهن ليكون مستطيلة ويصغرن أرجلهن تساوي في ذلك السابيات والعجائز وإنك لترى بنات السنن يذكرن أيام سبايهن ولا يقصرن في البرج كما ترى الطفلة الصغيرة أول ما تفتح عينيها عليه أنواع البرج والزينة. ومن غريب ما شاهد في برج النساء أن امرأتين في إحدى مستشفيات المجاذيب توصلن إلى أن يضعن على وجهيهما الأبيض والأحمر مع أن يحظر على المجذوبات كثيرا أن يؤتى إليهن بشيء من الدرور البيض والعطور وغيرها من أدوات الزينة فأخذت إحداهن أو بعضهن يحككن بأسنانهن كلس حطان غرفتهن وجمعنه فصبغن به وجوههن أبيض ناصعا أما الحمرة فعمدت إحداهن إلى قميص وهو قميص المستشفى وكان فيه بعض خيوط حمر فأخذت تنسلها حتى أتت عليها ثم وضعتها في إناء وصبت عليها ماء فانحل صباغه فصبغت وجهها وقد توصلت إحدى مخيلات الشعور إلى أن صنعت لنفسها مسدا من أسلاك الحديد تشد به خصرها فكانت تذنب مرات عمدا حتى تسجن في مكان بعيد عن رفيقاتها وراء حائط من

أسلاك الحديد فتسل كل مرة سلكا حتى تجمع لها ما أرادت. وقد جرب بعضهم إدخال ثلاث أصناف من الألبسة إلى إحدى مستشفيات المجذوبات أعني وأوسط وأدنى وقرر أن من كانت منهن حسنة السلوك تعطى الثوب الأعلى فما كان منهن كلهن إلا أن أحسن سلوكهن لتأخذن ثيابا من النمط الجديد.

النساء وإن لكن لا يرين في البرج حرجا عليهن إلا أنهن لا يردن أن يقال عنهن متبرجات ويتظاهرن بأنهن لا يصرفن في البرج أوقاتا كثيرة مع أن أكثر أوقاتهن تصرف في إعداد معدات البرج وما سألهن في ذلك إلا سألت أولئك السعراء الذين يحذقون ويبيعون من قصائدهم عشرين مرة ثم يدعون أنهم ارتجلوها ارتجالا. ولطالما تحمل النساء صنوف الأوجاع في سبيل ما يورثهن بهجة وبعددنه من آلات البرج مثل أولئك الصبيات اللاتي يضعن أرجلهن في قوالب خاصة لصغر حجمها ولكن ذلك يورثهن أمراضا وإصابات أقلها أنهن تحسن مشيا مشية الكركي الأسل. وكذلك النساء في سبيل جزيرة منقة فإنهن يرين من آلات الجمال أن يكون عنق المرأة طويلا فيصنعن لذلك كلابات يضعن فيها رؤوسهن ليرين بذلك طولا لأعناقهن حتى تصير كأعناق الزرافة. والنساء الزنجيات في غانة الجديدة وبريطانيا الجديدة في الخط الكبير يضعن أسنانهن لتظهرن أكثر جمالا بزعمهن بل أن النساء في تونس يطعمن الأرز لتصحن كالأوز السمين بحيث لا يستطعن الحركة. وكذلك نساء الإفرنج يحسبن كل منقة في سبيل وضع المشد على خصورهن. وعلى كره تحذير الأطباء لهن عاقبة ضغط المشد ما يروح أكثر النساء يستعملنه ويضعن بأمراض الكبد ونسوه الجسم وأحيانا يفضي بهن إلى الموت وهن لا ينهين بل يصبرن على آلام المشد صبر أيوب على بلواه ويكدن لا ينفسن طول لبثه بأسرها وهن مع الرجال في الأندية. كل هذا مما يستدل به على ضبط النساء لهواهن وقمعن أنفسهن.

وهذا استنتج بأن البرج مطلوب للنساء وأنهن في حل مما يضعن به. ولأنهن كن قبل سنتانة سنة لا يقربن ولا يكتبن في أوروبا ومع هذا كن يعتنين بالبرج ولهن فيه أساليب اخترعنها وتفننن فيها بحسب الأزمان سألت النساء الموغلات إلى اليوم في التوحش من الأمم فإنك تراهن قد يغيرن أساليب البرج وإن كانت أنسبهن وماعونهن وخرتهن على الصورة الأصلية.

فالبرج ضروري للاجتماع يورثه بهجة ونشأة ولولا النساء وبرجهن ما نجمت لعنك البيوت والقصور ذات بهجة فالنساء ببرجهن يدخلن السرور على القلوب والنظام على الأماكن وإذا قارنت بين بيت لا

نساء فيه يزدنه بهجة وتزين غرفه ومقاعده وحوائطه وبين دير ليس فيه إلا الضروريات من لوازم الحياة نجد الفرق بين التبرج وعدمه وزينه النساء وتقبيحها مثل الشمس ظاهرا فالتزين والتبرج مطلوبان على كل حال في حياتنا الاجتماعيه ولها نفع عظيم لأن فيهما من اللذه وسعاده النفس الخصال.

مآكل العظماء ومشاربهم

بحث المجله البارزيه فيما يأكله العلماء والكتاب وارباب الفنون في إنكلترا فقالت أن من صفات الإنكليز والإيكوسيين والغاليين والإيرلانديين ممن تألف منهم بريطانيا العظمى في الأكثر الثبات وتحمل شدة الهواء فهم في الأغلب البرد في الهواء الطلق من الواجبات الصحيه مثل ذلك النورد أفيوري المعروف باسم السير جون لوبوك فإن قوة جسمه ناشئه عن جمعه الرياضات الطبيعيه والسياحه إلى الاعتدال والتقلل وقال إن سبب طول حياته عنايته بقواعد في الحياة فيأكل مأكل بسيطه فإنه يتناول سمكا قليلا من الكحول وأنه يكاد لا يتناولها ولا يدخن وهو مشهور بالسياسه والعلم بتعب كثيرا في أعماله وعمره أربع وسبعون سنه. وقال السير وليام كروكس وهو من كبار العلماء الذين لا ينفكون عن البحث والدرس والتأليف والاختراع وهو الآن في الخامسه والسبعين من عمره أنه يأكل بسرور كل ما يستطيبه على المائدة ولكن باعتدال ويشرب الخمر ويدخن وكانت صحته في جميع أطوار حياته جيده جدا. ومنه غي عدم الكلال من العمل فريدريك هاريسون العالم المؤرخ الفيلسوف وهو اليوم في السابعه والسبعين من عمره يقتصر مأكله على اللحم ولكنه مقل في تناوله كما يأكل البقول واللبن والبيض. قال وأرى أن سبب الهرم العاجل الذي يصيب الطبقه العالية الغنيه هو ما يتناولونه من المأكل لا ما يتناولونه من المشارب من بلغوا سن السبعين يجب عليهم أن يقللوا كميه طعامهم إلى النصف مما كانوا يأكلونه في قبولهم. وأول قاعدة في الصحة جربت عليها هي أن أخرج من المائدة بدون أن تكون قابليتي للطعام قد سكنت. وأنا مسلم من حيث تناول السوائل الروحيه فلا أتناولها طول نهاري الهم غلا في المساء فإني أتناول قدحا أو قدحين من خمر المائدة الأبيض أو غيره ولكن لا على أنه معين القوى الطبيعيه أو المنشه. ولا يسعني إلا أن أمدح الاعتدال في تناول الشاي والقهوة في النهار لا في الليل أو المساء. وأنا لا أدخن وأمقت هذه العادة وأعدها مما يشمئز منه ويضر بالحاضرين. فالدخن كالمتعاطي السعوط والسكر وحلف الأيمان كلها من العادات الفاسدة الضارة. وأنا أعرف كثيرا من الناس أثرت في صحتهم عادة استعمال

الدخن. أنا اليوم في السابعة والسبعين من عمري لم أمرض في حياتي منذ كنت في التاسعة وقد أصبت بالحمراء وما قط عزفت نفسي عن العمل والكتابة فأنا اليوم أقدم المفروض عني لنشاطي من الكتابة بنشاط أكثر من نشاطي أيام حياتي الماضية وعندي أن طول حياتي كان لتمرني وعنايتي بالرياضة كل يوم في الهواء الطلق وربما صعدت الجبل إذا اتسع لي الوقت وما قط تعبت من العمل ولا عملت بدون سرور وقال الكونت روبرس وهو الآن في السادسة والسبعين خدم الجندية وقاسى الأهوال في حياته وأكل الخسب وشرب العكر وتعرض لنشارها والأمراض وحضر حصار المدن ومعاركه الأبطال ومع هذا فهو في أجود صحة. إن سبب طول حبل أجنه ناشئ من أنه يدخن قليلا أو لا يدخن وأنه يأكل ويشرب باعتدال. والسير ونظام مكائل روزني هو الآن في التاسعة والسبعين من عمره عالم وأديب سئل عن القواعد التي مرعاها لدوام الصحة فقال أن الاعتدال في مأكله ومشربه هو سبب صحته وقد اعتدت الدخن منذ صباي وأنا أعد مكسبا منه وأرى أنه يشوش علي الهضم في الأحايين ولكني لست مصابا بسوء الهضم وقال السير سارل ستانلي وهو من كبار المشتغلين والمغتنين وعمره الآن 74 سنة أنه يأكل كل ما يشتهي ويشرب ويدخن كذلك لكن باعتدال. قال المستر جورج برنارشواف وهو في الثانية والخمسين من عمره خطيب كاتب أديب ناقد قصصي وهو ممن يركب الدراجات ويعاني السباحات والسباحات: إني لم أتناول اللحم منذ 27 سنة وإني لا أشرب الكحول وأرى أنها ضارة في أرباب الأقلام فهي ليست معينة على العمل بل مخدرة وسارقة لا تفتح عليه بالأفكار بل تضع منها أما الدخن فلا أعتاده وأراه فقذرا. وترى العقيلة التي ترى المستقبل وهي الآن في السبعين ولكنها إذا ظهرت على محل المستقبل فلا تظن إلا أنها في السابعة عشرة من عمرها إن أحسن قاعدة للصحة أن يأكل الإنسان في أوقات معينة. قالت حاولت أن أنقطع مرة عن التدخين فضعف جسمي بعد شهر ثم حاولت مرة أن أمتنع عنها فلم أقدر فظهرت لي صحة ما يقال من أن ما ينفع واحدا قد يكون سما لغيره ولا أتناول مشروبا على الطعام وأنا على ثقة من أن الماء أحسن شراب ولكني أشرب كمية قليلة من الخمر والويسكي على أنني أراهما أضر على الإنسان من طبيخه المسموم بالخروطوش في أيدي أناس لا يحسنون أن يضبطوا أنفسهم ولا أدخن وإن حاولت التدخين. وقال الأستاذ الفرد روسل والاس وهو من أبناء السبعين وخصم داروين في مذهب النشوء اشتغل بمذهب الانتخاب الطبيعي والجغرافية الجيولوجية وبحث في المادة والصحة الاجتماعية والنوم المغناطيسي فقال أنه إلى السبعين من سنه كان يأكل كما يهوى وكان هضمه جيدا ثم ضعف

هضمه فاضطر أن يغير نظام طعامه ويقلل من كميته فانتهى بذلك مرض الربو المزمن وكان لأول أمره يشرب المشروبات الروحية باعتدال وفي الخامسة والعشرين من عمره امتنع عنها كل الامتناع فجادت صحته وقال أن التجارب والنظر دلته على أن المرء إذا وجب أن يسيخ ينبغي له أن يمتنع عن الكحول كل الامتناع لأنها تضر به لا محالة وأن يقلل من الطعام وأنا أتناول الشاي والقهوة وأحسن أوقات عملي في الصباح والمساء بعد أن أتناول كأسا من الشاي ومدة صباي لم أدخن فوقت من التدخين لما رأيت من سوء أثره في المدخن.

نوم النباتات ويقظتها

تختلف مبعاد نوم النبات بحسب أجناسها فالنبلاب الأحمر يفتح عند الغسق ونبات زهر الربيع يزهر في الشمس عند مغيبها وأزهار النوفر (عرائس الليل) تطيق زهرها المنونة في آخر النهار وتغوص في الماء في الليل.

الثقاب في يابان

تشتغل في صنع الثقاب أو الكبريت في بلاد اليابان 130 ألف نسمة فتصدر اليابان منه ما قيمته ستة وعشرون مليونا وربع مليون فرنك هذا مع أن المواد الأولية لصنعه لا توجد في يابان ومع سدد اليابانيين في أن لا يوقدوا المصابيح التي يوقدونها لأجدادهم إلا من شعلة نار صافية ما يرجح استعمال الثقاب يزداد في الاستعمال بين اليابانيين.

الممثلون في أميركا

يسكن الممثلون في أوروبا من قلة أرباحهم بالنسبة للممثلين في أميركا فإن كاروزو يتناول خمسمائة ألف فرنك للتمثيل ثماني ليال وأكثر من مائتي ألف فرنك لأغان تغنى أمام آلة الغرامافون ومثل ذلك في الليالي الخاصة ثم أنه يأخذ في الأسبوع ربع مليون فرنك لنفقته الخاصة في الفندق والمطعم ويربح الممثل بادرفسكي في كل سنة 625 ألفا وكوبلنك نصف مليون وبالنظر لكثرة المتفرجين في أميركا ولغلاء أجور التمثيل فالممثل يربح في العالم الجديد عشرة أضعاف ما يربح في العالم القديم.

تفاحة هائلة

عرف علماء النبات أكبر شجرة تفاح في العالم وهي في شسهير من ولاية كنتكت في أمريكا الشمالية غلظها خمسة أمتار وعلوها خمسة وعشرون مترا وعمرها مائتا سنة وهي تعطي اثنين وخمسين هكتولترا من الثمر في السنة وخمسة من أغصانها تعطي ثمرا سنة واحدة والباقية أغصان الباقية تعطي في السنة التالية إلا أن تفاحها صغير ويكاد يكون خاليا من الطعم.

سمن قديم

عثر أثناء الحفر في إحدى المخافر في إرلاندا على عدة أواق من السمن تبين بالفحص أنه قديم جدا ظاهره أبيض وكأن فيه حبوب وباطنه اسحال كثيف شمعية وإن ما وجد تحت من جنود البقر أزال كل شك في أن السمن أصلي لا شائبة فيه.

أطباء يابان

راجت صناعة الطب في يابان وأي رواج فيما نجد في فرنسا وهي عشر الأطباء خمسين طبيبا لكل مائة نسمة نرى في اليابان سبعين طبيبا لكل مائة ألف وقد زاد أطباء يابان في سنة **1907** وحدها **750** طبيبا.

وقف على العلم

وقف حسن بك زايد من سراة مصر زهاء خمسين فدانا من أجود أطيانه في المنوفية على مشروع الجامعة المصرية. وهذه الأطيان تساوي أحد عشر ألف جنيه بارك الله بمانحها وأكثر فينا من أمثاله.

هبة محمودة

تبرع أحد محسني الأجانب في مصر بخمسمائة جنيه للجمعية الخيرية الإسلامية ولم يحب أن يذكر اسمه مثل الذي كان تبرع لها في السنة الماضية بخمسة آلاف جنيه ولم يحب أن يذكر اسمه.

مدرسة صناعية بالفيوم

تجز بناء مدرسة صناعية للبنين في الفيوم كلفت عشرة آلاف جنيه جمعها الأهلون ومنها ألف جنيه إعانة من الأوقاف ومدة الدراسة فيها ست سنين ثلاث للقسم العلمي وثلاث للصناعي والصنائع التي تعلم فيها النقش والنجارة والبرادة والخراطة والحدادة والسروجة وستدفع المعارف **850** جنيها إعانة سنوية لإدارتها وتدفع الأهلون **350** جنيها لهذا الغرض.

مناجم البترول

مناجم البترول كمناجم الفحم الحجري آخذة بالنضوب سنة فسنة فقد نزل معدل ما يستخرج من مناجم أبالاش وأوهيو وفرجينيا والكنساس ولوزيانا في الولايات المتحدة كما قل معدله في غاليسيا في بلاد النمسا وكذلك الحال في القافقاس من بلاد الروسي فإن ما يستخرج منه نزل إلى نصف ما كان يستخرج منه بادىء بدء.

ألياف الخشب

أخذوا ينسجون من ألياف الخشب نسيجا يقوم مقام القطن والكتان ويكلف أقل منهما في الثمن بل أقل من الحرير كما أخذوا ينسجون قماشا أشبه بالصوف من بعض مواد يخرجونها بماء البحر.

الزرنيخ والحمى

أثبت أحد الأخصائيين من الأطباء أن الزرنيخ هو الدواء الوحيد الذي يقي من الحمى الصفراء فقال أن ألفي شخص في أورليان الجديدة استعملوا الزرنيخ سنة **1905** فنجوا كلهم من هذه الحمى الخبيثة وهم معرضون للعدوى من كل جانب

مجهر جديد

اخترع مجهر (مكروسكوب) جديد يرى فيه أدق الدقائق بحيث يكون الانتفاع به ضعفي المجهر الحالي فيه يرى كيف تكبر الجراثيم وكيف تسير العدوى وكيف يسري النضاح في الجسم.

التصوير البارز

اخترع أحدهم طريقة للتصوير الشمسي البارز يقولون أنها ستكون داعية لشهرة التصوير ظهورا لبطل إلا أن الصور

عداد جديد

كان باسكال أول من اخترع العداد وما زال المشتغلون فيه يحسنونه وآخر عداد اخترع كان لمهندس روسي ظهرت فوائده العديدة لأنه يعد من الأرقام من عشرة إلى عشرين في وقت واحد ولا يحصل فيه خطأ ولا يتعب عقل المشتغل به.

القطط والكلاب

أخذت المخاجر الصحة منذ مدة تتوفر على إبادة الجرذان والفيران في السفن لأنه بين أنها ناقلة لعدوى الأوبئة الخبيثة وقد انتبه أحد أطباء نيويورك إلى الضرار التي تلحق من القطط والكلاب بنقلها في وبرها بعض الجراثيم والديدان التي تجلب الضرر على الصحة وأورد على ذلك عدة أدلة منها أنه حدث سنة **1887** وباء كبير بين القطط في لندرا فكان القط يحمل إلى أخيه العدوى وبالتالي يسري إلى الأولاد الذين يلعبون مع تلك القطط وحدث في سنة **1901** أن الطاعون اشتد في الإسكندرية وما كانت جراثيمه تنتقل أولا من ملاح إلى ملاح على الباخرة إلا بواسطة قط كانوا يدللونه ويحبونه. وترى بعض الأمم المتمدنة الآن أن تعدل عن حب القطط والكلاب حبا بالوفي وحرصا على الصحة وقد بدأت ألمانيا فحظرت دخول والكلاب والقطط إلى الصيدليات وما حبذا لو حظر دخولها إلى المخازن والمخابز والصيدليات والمطاعم.

بطائح أميركا

ستوافق حكومة الولايات المتحدة على تجفيف البطائح في ولاياتها فتكون منها من الأرض القابلة للزراعة ما يكفي لإعالة اثني عشر مليونا من النفوس على أن يكون لكل واحد منهم ستة عشر هكتارا من الأرض وستساوي هذه الأطيان مليارا من الجنيهات وستلزم ذلك إنفاق عشرة ملايين فرنك.

حفظ المخطوطات

بعد أن احترقت مكتبة بورين في إيطاليا وذهبت فيها ألوف من المخطوطات النادرة أخذ أهل العلم في أوروبا وأميركا يفكرون في طريقة لحفظ المخطوطات لأنها تكون في الغالب غير متعددة فإذا وجد في إحدى المكاتب مخطوط بعد في نظر العلماء كنزا لأنه لا مثيل له وقد ارتأى بعضهم في نقل صورة من كل مخطوط نادر تطابق الأصل بسكتها وخطها إلا أن هذا العمل يحتاج إلى نفقات طائلة وتقدم المستر غولي إلى حكومة الولايات المتحدة مؤخرا أن تجعل مصفحات (كليشيهات) المخطوطات وأمهات الطوابع والنقود في مكان واحد وأن يجعل منها مسودات (بروفات) يتناولها العلماء ويستعيرونها للاستفادة منها لقاء ثمن بخس والغالب أن مكاتب أوروبا تضطر بعد حين إلى الجري على هذه الطريقة لحفظ الكتب النادرة.

مرض جديد

اكتشف مرض في إفريقيا جديد اسمه البالوي ما سببه النوام أي مرض النوم وهو عبارة عن تفاعلات تصيب الحيوانات كالخيل والكلاب والحمير والقطط والخنازير فيصاب الحيوان بمرض في أنفه وأذنه فيضعف في الحال. ويسمى هذا المرض بالقرب من الأنهار بحيث لا تسير بربيه هذه الحيوانات إلا على بعد خمسة عشر كيلومترا من الماء ولم يجدوا له حتى الآن دواء.

سرعة البواخر

تبارى كل من إنكلترا وألمانيا والولايات المتحدة في سرعة البواخر والبوارج التي تنشئها كل واحدة منهن بحيث تساءل العارفون قائلين: أما لهذه المباراة في السرعة من حد تقف عنده. أما زيادة السرعة فلا تأتي إلا بزيادة القوة المحركة فإن قطع اثنتي عشرة عقدة وحمل سته عشر ألف طن تقتضي قوة 4500 حصان وسرعة خمس عشرة عقدة تقتضي قوة 8700 حصان و20 عقدة تلزم لها 20000 و22 عقدة تقتضي لها 25000 وهكذا يزيد معدل الإنفاق زيادة هائلة.

آلة للكتابة

اخترع أحدهم آلة سماها السنوبيا وهي تنقل الكلام بدون استعمال إشارات الاختزال المعروفة وهذه الطريقة تلغي عدة آلات اخترعت من هذا القبيل لنقل الكلام فتقرأ الإنسان الكلام فيها بسرعة كأنه يقرأ إملاء صحيحا أو طبعا حجريا عاديا.

خسائر مصر

فقدت مصر في الأسبوع الثلاثة الأخيرة ثلاثة رجال كان لهم أثر مهم في الخطابة والكتابة والتأثير وهم إبراهيم بك اللقاني ومصطفى باشا كامل وقاسم بك أمين.

زوجان معمران

احتفل في إحدى قرى بلاد المجر بمرور مائة سنة على زواج رجل عمره الآن 126 سنة وامرأة عمرها 116 سنة وقد بلغ عدد أولادهما وأحفادهما وأحفاد أحفادهما 712 نفسا وهنأهما الإمبراطور فرنسيس يوسف بعدهما المثوي.

الكلاب والكلب

أحصت الكلاب في بارو وضاحيتها فكان عددها 163352 كلبا أصيب بالكلب منها 30 عضت 308 أشخاص لم يمت منهم أحد وبذلك ثبت أن العضات البسيطة تشفى بأقل سرعة مما تشفى عضة الكلاب.

أشجار أميركا

قدروا أنه لا تمضي خمسون سنة حتى لا يبقى في أميركا الشمالية صقع مسجر لأن المقطوع منها يربى على المغروس فمعدل النمو 23 ونصف في المئة ومعدل النقص 94 في المئة وبعد خمس وعشرين سنة يفنى الصنوبر الأصفر ذو الورق الطويل كل ذلك لما تقتضيه الصناعة هناك من الأخشاب.

الحمى التيفوئيدية

كان الأطباء يقولون أن إغلاء الماء قبل شربه خير وقاية من الحميات والأوبئة إلا أن أبحاث اللجنة الصحية في نيويورك أدت إلى أن الحمى التيفوئيدية فيها قد انتشرت في الناس بواسطة الذباب إذ ثبت أن ظهور الذباب يسبق انتشار هذه الحمى كل سنة بأيام قلائل وثبت لديها أن هذا المرض الخبيث يكثر حيث يكثر الذباب في المستودعات البحرية الكبرى وعلى الأرصفة ورأت باختبار (المكروسكوب) على رجل كل ذبابة وفمها ألوفا من الجراثيم الخبيثة فإذا زارت ذبابة وجهك أو طعامك ولو قليلا تركت فيه أثرا لها وذكرى سيئة وبقي جرثومة معدية تبعها حتى تهلكه.

الجراد في أفريقية

ذهب أحد الإنكليز في إفريقية الجنوبية إلى بعض الأماكن التي انتشر فيها الجراد انتشارا هائلا فعمي عليه طريقه ولم يعد يعرف أين يذهب وقد حسب الجراد الذي سقط على ساق شجرة واحدة فكان خمسمائة جرادة فإذا انتشر الجراد في قطر بهذه الكثرة لا ينقضي نصف نهار حتى يجرد جميع غلاتها وثمراتها ويجعل حاصلاتها وخيراتها أثرا بعد عين.

مدرسة للأمهات

أسس بعض أعيان الإنكليز وأطبائهم لجنة ناطوا بها تعليم الأمهات الفقيرات اللاتي لم يسعدهن الحظ أن يتعلمن في صغرهن ما ينفعهن في كبرهن. والتعليم الذي يتعلمنه يعلمهن كيفي يقين عليهن خطبا يدور على تربية الأطفال وحفظ الصحة وتدبير المنزل وتفصيل ثياب أزواجهن بحيث تصلح لتلبسها أبنائهن ثم أن الآباء يذهبون أيضا على نفقة المدارس مرة في الأسبوع ويلقى عليهم دروس تنفعهم وتنفع ذويهم كالتي تلقى على أزواجهم وقد أسفرت هذه المدارس عن نفع عظيم في التربية وقللت من الوفيات بين الأطفال وتفكر رجال الإنكليز أن يكثروا من هذه المدارس في جميع أصقاع إنكلترا.

صحافة ألمانيا وأميركا

بلغت الصحافة في ألمانيا أرقى درجات الارتقاء فقيها بحسب إحصاء أخير **8668** جريدة ومجلة منها **2894** صحيفة تنشر باللغات الأجنبية وأقدم جريدة في ألمانيا هي جريدة فرانكفورت وأنشئت سنة **16145** وجريدة ماكبورغ أنشئت سنة **1626**. ويعجب المراقبون للحركة الاجتماعية اليوم من ارتقاء الصحافة الأسبوعية في الولايات المتحدة وهي الجرائد التي تصدر أيام الآحاد فإن ما يطبعه كل واحدة منها يختلف من نصف مليون نسخة إلى مليون وفي نيويورك وحدها من هذا الضرب من الجرائد **15** جريدة وفي فيلادلفيا **11** ومنها في شيكاغو وهي من أحسن المجلات في الحقيقة لأنها تصدر في مئة صفحة وتحوي على أربعين صفحة إعلانات والباقي مواد علمية واقتصادية واجتماعية وسياسية وأدبية وغيرها من كل ما يرقي العقل ويهدي السبيل.

محاكم الأطفال

تألفت في روسيا لجان لحماية الأطفال تقوم بوظيفة مستنطق وهي مؤلفة من أساتذة وقسس فإذا ارتكب طفل ذنبا تنظر في جرمه لتحقق فيما إذا كان ارتكبه عن جهل أو خبث فإذا رأته مسؤولا عما جنت يداه تحيله إلى المحاكم وإذا كان ارتكب ما ارتكب بدون تمييز يرسله إلى الإصلاحية على أن حكومة ألمانيا تفكر في إنشاء محاكم نظامية للأطفال.

الكحول والجرائم

يثبت لأحد قضاة فرنسا أن الجرائم تزيد في أكثر مقاطعاتها على نسبة ازدياد المسروبات الروحية وأن معدل السن التي كانت ترتكب فيها الجرائم كان ثلاثين فأصبح اليوم عشرين سنة وأن عدد الانتحار

نريد وأن كثرة الجنون زادت زيادة هائلة فكان منذ خمسين سنة في فرنسا 33 مختل الشعور في كل مئة ألف ساكن فأصبح سنة 1905 يبلغ 142 بل بلغ في بعض المقاطعات 234 والسبب في ذلك أنه كان في فرنسا خمارة واحدة لكل 113 ساكن سنة 1880 فأصبح هذه السنة خمارة لكل 78 شخصا